حين خُطبت من دون قصد

دفافني خولة

الفصل اول

اصطدام غير مقصود

كان كلّ شيء يبدو كالحلم...

ماريا ترتدي فستانًا أبيض ناعمًا، شعرها ينسدل على كتفيها كخيوط الذهب، والزهور من حولها تتمايل برقة.

يقف أمامها شاب وسيم، عيناه تلمعان بهدوء، ينحني بلطف، يمدّ يده ويهمس بصوت عذب:

–"ماريا... هل تقبلين بي؟"

ارتجف قلبها، وابتسمت بخجل، وما إن همّت بالإجابة، حتى دوّى صوتٌ مزعج قطع عليها لحظة الحلم:

بييب! بييب! بييب!

فتحت عينيها بفزع.

–"يا إلهي! السابعة وعشرون دقيقة؟!"

قفزت من سريرها كمن لدغته نار، ركضت نحو الحمّام، غسلت وجهها على عجل، ارتدت ملابسها المدرسية كيفما اتّفق، وحملت حقيبتها على ظهرها.

أمسكت بكوب القهوة الساخن، ثم خرجت مسرعة من المنزل، تلهث:

–"أول يوم دراسي... وسأتأخر؟ يا للمصيبة!"

ركضت في الشارع كمن يهرب من كارثة، وعيناها لا تريان سوى عقارب الساعة التي تلاحقها، وفجأة...

بووووم!

اصطدمت بجسدٍ ما، قوي وثابت، ارتدّت إلى الوراء، وانسكبت القهوة على قميصه الأبيض.

رفعت رأسها مذعورة، لتقابل عيني شاب طويل القامة، ملامحه حادة، وعيناه سوداوان كأنّهما ليلٌ بلا نجوم.

نظر إليها ببرود، ثم قال بلهجة متعجرفة:

–"حقًا؟ هل هذا نوع من الترحيب؟ قهوة على الصدر؟ صباحٌ جميل، أليس كذلك؟"

قالت بتوتر:

–"آسفة! لم أكن أرى... كنت في عجلة من أمري!"

لوّح بيده كمن يطرد ذبابة وقال:

–"لا بأس... فقط، أزيلي نفسك من طريقي."

حدّقت فيه بغيظ، ثم تمتمت وهي تبتعد:

–"يا له من مغرور! وجه جميل... وقلب من حجر."

دخلت الثانوية وهي تلتقط أنفاسها، وما إن تجاوزت البوابة حتى سمعت همسات متداخلة لبنات يتحلّقن في الزاوية:

–"رأيته! إنه كالحلم... تمامًا مثل أبطال المسلسلات الكورية!"

–"يقال إنه انتقل حديثًا... طويل، وسيم، وبارد كالثلج! هذا النوع من الشباب يُخطف القلب!"

رفعت ماريا حاجبها وقالت بفتور:

–"أين العجب؟ إنه مجرد شاب لا يعرف كيف يعتذر."

سمعتها فتاة خلفها، اقتربت منها وقالت بسخرية:

–"واضح أنّكِ من النوع الذي لا يقدّر الجمال حين يراه."

نظرت إليها ماريا وقالت ببرود:

–"وأنتِ من النوع الذي ينبهر بالقشور، لا أكثر."

كادت الفتاة تردّ، لكن الجرس أنقذهما من شجار وشيك.

دخلت ماريا الصف، وما إن رفعت رأسها نحو المقاعد الأخيرة حتى تسمرت في مكانها...

إنه هو.

الشاب ذاته، الجالس بكل كبرياء في المقعد الأخير، وعلى سترته بقعة القهوة التي لم تجفّ بعد.

قالت المعلمة:

–"ماريا، تفضّلي بالجلوس هناك، لا يوجد مكان آخر شاغر."

اقتربت من المقعد بتردد، جلست بصمت، ووجهها يتقلّب بين الضيق والإحراج.

همس قائلاً دون أن ينظر إليها:

–"أرجو ألا تسكبي شيئًا هذه المرة... لا أحب الروائح القوية."

ردّت بسرعة وهي تبتسم بسخرية:

–"اطمئن... لو أردت أن أكبّها الآن، لفعلت عن قصد."

ابتسم بخفّة، ثم قال:

–"هذا الفصل سيكون مثيرًا للاهتمام..."

همست في سرّها وهي تنظر إلى السماء من النافذة:

-"بدايته جنونية... فكيف ستكون نهايته؟"

الفصل الثاني

قلبٌ في حالة إنكار

مرّت الدقائق ثقيلة على ماريا، وهي تجلس بجانب ذلك الشاب المتكبّر، تحاول ألا تنظر إليه، رغم أن فضولها كان يتلاعب بها. كان يتصفّح كتابه بهدوء، كأن العالم كله لا يعنيه، وكأن وجودها إلى جانبه لا يثير فيه أي شعور.

همست لنفسها:

–"ما بالي ألتفت نحوه كل دقيقة؟ ما شأني به أصلًا؟"

قطعت أفكارها صوت المعلمة:

–"أودّ أن أعرّفكم بزميلكم الجديد، انتقل حديثًا من الخارج، وسيقضي عامه الدراسي معنا هنا."

رفعت المعلمة نظرها إليه وقالت:

–"تفضل، عرّف بنفسك."

أغلق كتابه ببطء، وقف، ثم قال بصوت هادئ لكن يحمل شيئًا من الغرور:

–"اسمي آدم... لا أحب الأحاديث الجانبية، ولا أحب أن يسألني أحد عن أموري الخاصة. شكرًا."

عمّ الصف صمت غريب، تبعه همس خافت بين الطالبات، وابتسامات خجولة.

جلست ماريا تهمس بسخرية:

–"يا له من تعريف! وكأنّه نجم سينمائي جاء ليوقّع توقيعات المعجبين!"

همس آدم دون أن ينظر إليها:

–"إن كنتِ تغارين من اهتمامهم، يمكنكِ أن تقدّمي عرضًا أنتِ أيضًا."

نظرت إليه بدهشة، وقالت:

–"هل تقرأ الأفكار أيضًا؟ أم أنك وضعت جهاز تجسس داخلي؟"

ابتسم بخفة وقال:

–"أنا فقط ألاحظ... ولست بحاجة إلى أدوات لفهم من حولي."

تجاهلته ماريا، وأخرجت دفترها. كانت تحاول أن تُبعد عقلها عن التفكير فيه، ولكنها فشلت.

في ساحة المدرسة خلال الاستراحة، كانت تجلس مع صديقتها رُلى تحت شجرة كبيرة، تتحدثان عن أول يوم دراسي.

قالت رلى مبتسمة:

–"أخبريني... ما الذي حدث بالضبط؟ سمعت أنك سكبتِ القهوة على الطالب الجديد؟"

–"آه، لا تذكريني! كان يومًا فوضويًا منذ بدايته، وذاك المغرور زاد الطين بلّة."

ضحكت رلى:

–"لكن لا يمكن إنكار أنه وسيم! عيناه تشبهان أبطال الروايات!"

–"قد يكون وسيمًا، لكن لسانه أكثر حدّة من السكين!"

تأملت رلى ملامح ماريا، ثم قالت بمكر:

–"أترين؟ بدأتِ تتحدثين عنه كثيرًا... إنها علامة."

–"علامة على الجنون، لا أكثر!"

لكن قلبها لم يكن يصدّق كلماتها... كانت هناك رعشة خفيفة، خفية، تتحرك في زوايا مشاعرها... مشاعر لم تعترف بها بعد، لكنها بدأت تنمو ببطء.

في نهاية اليوم، وبينما كانت تستعدّ لمغادرة المدرسة، شعرت بشيء ما يُلقى نحو قدميها.

ورقة.

انحنت والتقطتها، فتحتها بهدوء، لتجد فيها كتابة بخط أنيق:

"نلتقي مجددًا غدًا... لا تتأخري، حتى لا تضطري للجلوس بجانبي مجددًا.

–آدم."

رفعت رأسها تبحث عنه، لكنه كان قد اختفى.

همست وهي تشدّ الورقة بين أصابعها:

–"يا له من متعجرف!..."

لكن في داخلها، كانت تبتسم...

الفصل الثالث

بين التحدي والانتباه

في قلب حصة اللغة الإنجليزية، جلست ماريا على مقعدها الأخير، وعينيها متجهتان نحو هاتفها المحمول، تغوص في عالمها الخاص بعيدًا عن كلمات الأستاذة التي كانت تتلوها بلهجة رسمية ورتيبة.

تمتمت بصوت منخفض:

–"ليش لازم نسمع كلام معلمة تقول نفس الكلام كل سنة؟"

أخذت تتابع فيديوهات قصيرة ضاحكة، تبتسم بسخرية، غير مبالية بما يدور حولها.

فجأة، شعرت بنظرة حادة تخترق ظهرها، التفتت لترى آدم يرمقها بنظرة رسمية، حادة، مملوءة بالاستنكار.

همس بصوت بارد:

–"هل تعلمين أن استخدام الهاتف أثناء الدرس ممنوع؟"

ابتسمت ماريا بسخرية وهي ترد:

–"واش نقوللك؟ نحب نمزح شوي، المدرسة مو مكان للجدية طوال الوقت."

رأى آدم أن الأمر بدأ يتجاوز الحدود، فاقترب منها وهمس مجددًا:

–"إذا لم توقفي هذا الآن، ستكون العواقب وخيمة."

قبل أن ترد، سمعت صوتًا صارمًا:

–"ماريا! هاتِ الهاتف فورًا!"

كانت الأستاذة قد لاحظت الأمر وتقدمت نحوها.

رفعت ماريا هاتفها بتحدٍ وقالت:

–"واش هذا؟ تحبوني نكون نمرة واحد في الدرس؟"

ابتسمت الأستاذة بابتسامة لا تخلو من حزم:

–"لا، بل أريد منك احترام النظام والتركيز."

أخذت الهاتف من يدها، ووضعت ماريا في موقف محرج أمام الجميع.

نظرت ماريا إلى آدم، الذي كان يراقب المشهد بابتسامة خفية لا تُفسر.

همست في نفسها:

–"هو السبب... راح ننتقم!"

الفصل الرابع

السرّ المكتوم

بعد انتهاء حصة اللغة الإنجليزية، حملت الأستاذة هاتف ماريا بجدية وقالت:

–"سأأخذ هذا الهاتف إلى مكتب المدير، وسيُوضع مع بقية الأجهزة الممنوعة."

خرجت ماريا من الصف غاضبة، والتقت بصديقتها رلى في الساحة.

قالت رلى مطمئنة:

–"ما تقلقيش، لازم نسترجعو هاتفك بأي طريقة."

ابتسمت ماريا بخبث وقالت:

–"عندي خطة... أخويا إياد، وصديق طفولتنا ياسين، راح يساعدونا."

في تلك الأثناء، كان آدم يراقب ماريا من بعيد. لم يشارك في خطتهم، لكنه شعر بحزنها.

في لحظة قرر آدم أن يتدخل، فذهب إلى المدير وقال له:

-"السيد المدير، ماريا كانت تطلب رقم هاتفي لأنها تحتاج مساعدة في الدراسة."

ابتسم المدير وقال:

-"حسنًا، سأحتفظ بالهاتف عندي، ليكون في أمان، وأعطيه لها عندما تحتاج."

انتظر إياد وياسين الفرصة ليدخلوا مكتب المدير بحثًا عن الهاتف، لكنهما لم يجداه هناك.

عادوا إلى ماريا ورلى بخيبة أمل.

في وقت لاحق، وبينما كانت ماريا تتحدث مع صديقاتها في الفصل، فوجئت بآدم يتصفح هاتفها بهدوء.

صرخت بصدمة:

-"آدم! ماذا تفعل بهاتفي؟!"

ابتسم هو بابتسامة غامضة وقال:

-"كنت أبحث عن شيء... وربما كنت أريد أن أكون قريبًا منك."

تجمعت النظرات حولهما، وكانت بداية فصل جديد من العلاقة المشحونة بين ماريا وآدم.

الفصل الخامس

شجار على حافة الجنون

نظرت إليه ماريا بحدة:

–"آدم! رجّع لي هاتفي الآن، هذا ليس من حقك."

رفع هو حاجبه بتهكم وقال:

–"من حقي؟ لما؟ أنتِ تركتيه دون حماية."

تقدمت ماريا من مقعدها وهي ترد بغضب:

–"أنا لم أتركه هكذا، الأستاذة أخذه! وأنت بدون إذني تستعمله؟"

ضحك آدم ساخرًا:

–"أنا فقط أتحقق إذا عندك شيء يخصني، أو يخص أحد من حولي."

أخذت ماريا نفسًا عميقًا، محاولة تهدئة نفسها، لكن الكلمات خرجت كالسهم:

–"إذن أنت تحب تتدخل في حياتي بدون سبب؟"

نظر إليها آدم بنظرة مليئة بالتحدي:

–"وأنتِ لا تريدين أن تري الحقيقة."

ارتفعت أصواتهم، والطلاب حولهم يراقبون بفضول.

في هذه اللحظة، دخلت الأستاذة نوران الصف وقالت بحدة:

–"ما هذا الصخب؟! عودوا إلى مقاعدكم فورًا."

جلس آدم وماريا، لكن التوتر بينهما لم ينتهِ، بل ازداد، وأدرك الجميع أن هذه العلاقة ستظل مليئة بالمشاحنات والصراعات.

بعد الدرس، التقت ماريا برلى في الساحة، وقالت بحزن:

–"آدم مزعج للغاية... لا يفهم كيف أشعر."

ضحكت رلى وقالت:

–"هذا جزء من شخصيته، بس تراك تثيرينه أكثر."

ابتسمت ماريا وقالت:

–"ربما، لكنني لا أستطيع تحمله كثيرًا."

في الأيام التالية، استمرت المعارك الكلامية بين ماريا وآدم، وكل لقاء بينهما يتحول إلى شجار، ولكن خلف كل كلمة حادة، كان هناك شعور غير معلن.

الفصل السادس

مصيبة اسمها "آدم"

مرّ شهرٌ كامل، ولم يتغيّر شيء.

ماريا وآدم، لا يمكن أن يمرّ يومٌ دون أن ينشب بينهما شجار، أو نظرة تحدٍّ، أو تعليق ساخر.

كان الجميع يعرف أن الاثنين لا يتفقان، وكأن بينهما حربًا قديمة لا تهدأ.

وفي صباح يومٍ مشمس، دخل الأستاذ حسني ـ أستاذ الرياضيات والمسؤول عن القسم ـ إلى الفصل يحمل بيده أوراقًا، وملامحه تدل على أمر غير عادي.

قال بنبرة جادّة:

–"بسبب تدني نتائج بعض الطلاب، قررت الإدارة تشكيل *فرق دراسية* داخل كل قسم."

همسات بدأت تنتشر بين التلاميذ...

تابع الأستاذ وهو ينظر في الأوراق:

–"الفكرة هي أن كل طالب ضعيف في مادة، يُرافقه طالب متفوق. وراح تتكون مجموعات ثنائية... ستدرسون معًا، وتُقيّمون معًا، وتُحاسبون معًا."

ارتفعت الهمسات أكثر، وبدأت الأعين تترقّب النتائج.

فتح الأستاذ الورقة الأولى وقال بصوت واضح:

–"المجموعة الأولى :آدم يونس... وماريا بن يحيى."

سكت الجميع.

ثم انفجرت ماريا بصوت منخفض، وهي تضرب الطاولة بخفة:

–"لاااا... قوليلي إنني أتحلم."

ضحكت رلى بجانبها وقالت:

–"هادي لعنة يا بنتي... باينة."

أما آدم، فابتسم ببرود وقال ساخرًا:

–"أوه، صدفة جميلة. كنت أنتظر هذا اليوم منذ زمن."

رمقته ماريا بنظرة قاتلة:

–"أنا أفضل أن أرسب على أن أدرس معك."

رفع حاجبيه وقال بثقة:

-"هذا لأنك لا تملكين الشجاعة لتتعلمي من أحد أذكى منك."

همست ماريا لرلى:

-"أذكى مني؟! شوفي الغرور كيف يمشي على رجليه!"

ضحكت رلى وهي تحاول أن تخفف الجو.

بعد الحصة، اقترب الأستاذ حسني من ماريا وقال:

-"أعرف أنه ليس سهلاً، ولكن هذه فرصة. لا تجعلي خلافاتك الشخصية تُؤثر على مستقبلك."

هزّت رأسها بتضايق، لكن في داخلها، بدأت تشعر بشيء مختلف... شيء يربكها أكثر مما تزعجها تلك الشجارات.

**

في اليوم التالي، بدأ أول لقاء دراسي بين ماريا وآدم... وبدأت المعركة الحقيقية، لكن من نوع جديد.

الفصل السابع

جلسة في جحيم الكبرياء

في نهاية اليوم الدراسي، جلست ماريا في الطاولة الخلفية من المكتبة، عابسة الملامح، ذراعاها متشابكتان، تنقر على الطاولة بأظافرها.

قالت لرلى قبل قليل:

–"إذا تأخر آدم أكثر من خمس دقائق، راح أعتبر الجلسة ملغية وأمشي."

لكن وقبل أن تكمل عدّ دقيقتين، دخل آدم، يحمل في يده دفترًا وكتاب الرياضيات.

اقترب منها بثقة زائدة وقال:

–"لم أتأخر... بل جعلتك تنتظرين، فرق."

رفعت عينيها نحوه وردّت بسخرية:

–"واضح أنك متخصص في استفزاز الناس."

جلس أمامها بهدوء وقال:

–"وأنتِ متخصصة في تحويل أي جلسة دراسة إلى معركة."

نظرت إلى الكتاب وقالت بتضايق:

–"نبدأ ولا رح تبقى تتفلسف عليّ طول الجلسة؟"

ابتسم وقال:

–"فلنبدأ... لكن لا تضيعي وقتي بأسئلتك الساذجة."

شعرت ماريا وكأن بركانًا اشتعل في صدرها:

–"ساذجة؟! اسمع، يا سيد العبقرية... أنا مش أقل منك ذكاءً. فقط ما كنت أركز بسبب الظروف."

اقترب منها قليلًا، نظر في عينيها وقال بنبرة غامضة:

–"الظروف؟ أم الكبرياء اللي يمنعك تتقبلي المساعدة من غيرك؟"

ابتعدت عنه بسرعة، وهي تحاول أن لا يظهر ارتباكها، وقالت:

–"كبرك هذا رح يخليك تسقط يومًا ما... وأنا راح أصفق وقتها."

ضحك وقال:

–"أنا أسقط؟ أنا أُولد كي أرتفع."

قالت بتهكم:

–"وما رأيك نكمل الجلسة قبل ما أحوّل الكتاب إلى سلاح؟"

بدأ آدم يشرح مسألة، بأسلوبه الساخر المعتاد:

–"المعادلة بسيطة... لكن أظنها أعقد من شخصيتك."

–"إيه... واضح أنك ما تفهم إلا بلغة السخرية، لكن مشكلتك أنك ما تعرف تتوقف."

–"ومشكلتك أنكِ ذكية، بس ما تعرفي كيف تستغلي ذلك الذكاء."

كانت كل جملة بينهما تشعل النار وتخفي خلفها شيء لا يعترف به أحد منهما... مزيج من التحدي، الإعجاب، وربما، بداية مشاعر مربكة.

مرت ساعة كاملة من الدراسة، امتزجت فيها الحسابات بالرياضيات، والمشاحنات بالمشاعر، وبين كل سطر مكتوب، كان هناك شيء يتغير.

ولأول مرة، شعرت ماريا أن آدم رغم كل استفزازه... يعرف كيف يدخل لعقلها.

أما هو، فكان يرى في عينيها حربًا تشبهه... فابتسم لنفسه وقال في داخله:

"ماريا... ربما تكونين مشكلتي القادمة."

الفصل الثامن

شرارة غيرة لا تُعترف

مرّت الأيام القليلة التالية، وكل جلسة دراسية بين ماريا وآدم كانت تمضي بنفس الوتيرة:

نقاش، مشادات، ثم هدنة مؤقتة، يليها تعليق ساخر ينهي اللقاء على حافة الانفجار.

لكن في هذا اليوم، حدث ما لم تتوقعه ماريا.

دخلت إلى الساحة، تبحث عن رُلى، وبينما كانت تلتف حول الزاوية، تجمدت مكانها.

هناك، قرب مقاعد الظل، كانت "ليان" ـ الفتاة الجديدة، المعروفة بجمالها وجرأتها ـ تضحك بصوت مرتفع وهي تتحدث مع آدم.

كان يقف أمامها، يبتسم بهدوء، ويمسك بكراسه، يشرح لها شيئًا.

كانت يد ليان تلمس ذراعه بلطف وهي تضحك وتقول:

–"آدم، لو كنت أستاذي، كنت راح أجيب العلامة الكاملة في كل المواد."

ضحك وقال:

-"ومع ذلك... أشك أنك تستحملين أسلوبي الصعب في الشرح."

ماريا شعرت وكأن قلبها تلقى صفعة.

لم تكن تغار... أو على الأقل، هذا ما حاولت أن تُقنع نفسها به.

"هو يشرح لها... عادي جداً، عاادي!" تمتمت، ثم سارت بسرعة وهي تشد على حزام حقيبتها.

جلست في مكانها داخل الفصل، وفي صدرها شيء يغلي.

دخل آدم بعد دقائق، وجلس بجانبها في آخر الصف، كما اعتادا.

ابتسم كعادته:

-"أهلاً، جاهزة لدرس اليوم؟"

لم تلتفت له، ولم ترد.

رفع حاجبه:

-"ماذا بكِ؟ فقدتِ صوتك فجأة؟"

قالت بنبرة جافة:

-"ما دمت صرت تشرح للبنات... ليش ما تروح تدرس ليان؟"

ضحك بدهشة:

-"آه، الآن فهمت. تغارين؟"

نظرت إليه بحدّة:

-"أنا؟ أغير منك؟ مستحيـل."

-"واضح، نظرتك كانت بتولّعني نار."

قاطعته بحدة:

-"اهتم بشؤونك، وخليني أركز، لأن واضح أنك تشتتني أكتر من المسائل الرياضية."

ابتسم بخبث وهمس:

-"وأنا كنت أظن إنو *أنا* مشكلتك، بس طلعتي أنتي مشكلتي الحقيقة."

ارتبكت، ثم التفتت للسبورة، تحاول أن تسيطر على ارتباكها، لكنها سمعت صوت قلبها يضرب في صدرها كأنه يُخبرها بشيء...

شيء لم تكن مستعدة للاعتراف به.

الفصل التاسع

صدمة عند مفترق الطريق

في صباح اليوم التالي، خرجت ماريا من المنزل متأخرة قليلًا كعادتها.

أدارت رأسها يمينًا ويسارًا، ثم بدأت تمشي بسرعة في الطريق المعتاد نحو الثانوية.

لكن قبل أن تُكمل عشرة أمتار، توقفت فجأة.

هناك، في الزاوية المقابلة... كان آدم يقف إلى جانب فتاة... ليان.

كانت تضحك وهي تتحدث معه من جديد، وقلب ماريا انكمش دون استئذان.

أحست بحرارة في وجهها، فاستدارت على الفور محاولة أن تأخذ طريقًا آخر.

لكن صوتًا مألوفًا أوقفها:

–"ماريا! إلى أين؟!"

تجمدت في مكانها، تنفست بعمق، ثم استدارت ببطء.

آدم كان يقترب منها بخطوات هادئة، عيناه تلمعان بتلك النظرة المستفزة التي تعرفها جيدًا.

قال بسخرية:

–"شو صاير؟ هاربَة من الطريق؟ ولا من الواقع؟"

رفعت حاجبها وقالت ببرود:

–"ولا هاربة منك، لأنه ما في أسوأ من بدايتي لنهاري بصوتك."

–"واضح أنك تحلمين بي لدرجة الهروب مني في الواقع."

تقدّمت ليان بخفة وقالت:

–"آدم، خلّيها بحالها، يمكن مو في مزاجها اليوم."

نظرت ماريا إلى ليان، ثم إلى آدم، وقالت بتهكم:

–"واضح إنو علاقتكم كتير قريبة..."

ضحك آدم، وقال فجأة:

–"أكيد... لأنها أختي."

اتسعت عينا ماريا:

–"ماذا؟!"

ردت ليان بضحكة خفيفة:

–"مش من نفس الأم... إحنا إخوة من الأب، وما نعرف بعض إلا من كم سنة. ظروف شوي معقدة."

شعرت ماريا أن الأرض تدور تحت قدميها، ارتبكت، ثم قالت بسرعة:

–"ما كنت مهتمة أعرف... ما يهمني أصلًا."

–"واضح جدًا، لدرجة إنك كنت راح تغيّري الطريق عشان ما تشوفيهم."

قالها آدم بابتسامة منتصرة، وهو يضع يديه في جيبه.

سارت ماريا بسرعة للأمام وقالت:

–"أنا مو فاضية لمسرحياتكم العائلية."

ضحكت ليان وهمست لأخيها:

–"عنيدة، بس شكلها بتحبك."

هز آدم رأسه وقال بابتسامة خفيفة:

–"ماريا؟! مستحيل تعترف. بس أنا شايف... وبوضوح."

وتابع خطواته خلفها، وهو يتمتم:

–"بدأت اللعبة، وماريا... أنتِ الهدف الأصعب."

الفصل العاشر:

ورقة الرياضيات... وساحة حرب صامتة

دقّ جرس المدرسة إيذانًا ببدء أول امتحان فصلي :الرياضيات.

كان الهدوء يسود الأروقة، والتلاميذ يتنقلون بوجوه شاحبة، بعضهم يراجع آخر القوانين، وآخرون يرددون الأدعية.

دخلت ماريا إلى القاعة، تحمل ورقة المراجعة بين يديها، وعقلها يعج بالفوضى.

جلست في مقعدها، و إلى جانبها... كالعادة، آدم.

ابتسم وهو يراها متوترة:

–"ماريا، لا ترتبكي... لو عجزتِ عن أي سؤال، قولي لي. مستعد أشرح لك حتى في وقت الامتحان."

نظرت إليه بحدّة:

–"أنا لا أحتاج مساعدتك... ولا حتى في ترتيب أوراقي."

–"أوه، عنادك يوصل للسماء... طيب نشوف."

وزعت الأستاذة أوراق الامتحان، وبدأ الصمت يُخيّم.

كانت ماريا تحدق في الورقة... الأسئلة الأولى سهلة، لكنها تعثرت عند المسألة الأخيرة.

"إذا تحرك القطار بسرعة ٨٠ كم/ساعة..."

عيناها تائهتان في الأرقام، بينما يدها تمسك القلم دون أن تتحرك.

لاحظ آدم ارتباكها، فهمس من جانب فمه:

–"ابدئي من الخلف... السؤال الثالث سهل، ركزي عليه."

أدارت وجهها نحوه دون أن ترد، لكن نظرتها حملت توترًا وامتنانًا لا تستطيع التعبير عنه.

وبينما كانت الأستاذة منشغلة في مراجعة بعض الأوراق، مد آدم يده، وكتب على ورقة صغيرة بخط صغير:

"السؤال الثاني = قانون الحركة الثاني × الزمن."

ووضع الورقة فوق طاولته.

نظرت ماريا إلى الورقة، ثم إليه... قلبها ينبض بقوة.

ترددت... ثم استدارت، وأعادت الورقة إليه دون أن تقرأها.

كتب على طاولته بقلم الرصاص:

"عنادك ممكن يخسّرك العلامة الكاملة."

كتبت هي:

"أنا أفضل الرسوب... على أن أحتاجك."

تنهّد، وابتسم ساخرًا، ثم عاد لورقته.

بعد ساعة، انتهى الوقت، وجُمعت الأوراق. خرج الطلاب من القاعة بوجوه متوترة، إلا ماريا... خرجت بوجه غاضب وكتفَي توتر.

لاحقها آدم وقال:

–"جاوبي بصدق، كم سؤال تركتيه فاضي؟"

–"واحد... فقط."

–"السؤال الثاني، صح؟"

–"قلت لك ما يهم."

اقترب منها وهمس:

–"لو نقصتِ عليه علامة... راح ألوم عنادك، مو صعوبة الامتحان."

نظرت إليه بصمت، ثم مشيت بخطوات سريعة، وأي شيء سوى دماغها كان يصرخ:

لماذا يهتم؟ ولماذا أنا... لم أتجاهل؟!

الفصل الحادي عشر

نتائج لا تُنسى

مرت الأيام التالية ببطء، والتوتر يزداد بين التلاميذ. همسات في الأروقة، تخمينات في ساحة المدرسة، وقلوب تنتظر لحظة الحسم...

وأخيرًا، دقّ جرس الاستراحة الطويلة، فوقف أستاذ الرياضيات أمام لوحة الإعلانات، يحمل في يده كومة أوراق مكدّسة.

قال بصوته الهادئ:

–"النتائج ستُعلَّق الآن... ألف مبروك للمتفوقين."

تجمهر الطلاب حول اللوحة، يدفع بعضهم بعضًا بعشوائية، بينما كانت ماريا تقف مترددة بعيدًا، تنظر بخوف وكأنها تتوقع الأسوأ.

اقتربت منها رلى وقالت:

–"تعالي نشوف سوا... لا تخافي، أكيد نتيجتك ممتازة!"

ابتلعت ماريا ريقها، وسارت بخطوات بطيئة حتى اقتربت من الورقة.

بدأت تبحث عن اسمها...

وعندما وجدته، تجمّدت:

"ماريا جمال: 20/18"

رفعت حاجبيها، صُدمت...

درجتان فقط؟ لقد كانت واثقة أنها أجابت جيدًا... ربما.

وفجأة سمعت صوتًا مألوفًا يقول:

–"أوه، المركز الأول كالعادَة."

استدارت، لتجد آدم يقف بالقرب من اللوحة، يتأمل اسمه:

"آدم ناصر: 20/20"

ابتسم بثقة وهو ينظر نحوها:

–"قلت لك تراجعي السؤال الثاني... بس العناد أقوى."

شدّت على كتبها وقالت ببرود:

–"مبروك... تفوقت بدرجتين فقط، لا تنفخ صدرك كثير."

–"درجتين؟ في عالمنا، الفرق بين الذهب والفضة... بس طبعًا، أنتِ ما تحبي تعترفي."

رلى حاولت التدخل وقالت بلطف:

–"بس نتيجتك رائعة يا ماريا! 18 علامة؟ أحسن من المرة السابقة بكثير!"

لكن ماريا كانت لا تزال متوترة، وعيناها تنتقلان بين اسمه واسمها.

همست في داخلها:

لماذا يُربكني بهذه الطريقة؟ لماذا رغم كل مشاكلي معه... أريد أن أتفوق عليه؟

آدم، وكأنه قرأ أفكارها، اقترب وقال:

–"المنافسة لذيذة... بس أنا دائمًا خطوة قبلك، ماريا."

ابتعد وهو يضع سماعاته بأذنيه، يهمس لها بابتسامة نصفية:

–"الخطوة القادمة؟ الفيزياء... استعدي."

تركت ماريا المكان وهي تغلي من الداخل، همست لرلى:

–"أنا راح أدرسه... وأتفوق عليه، بأي ثمن."

الفصل الثاني عشر

أسبوع... على نار

بدأ العد التنازلي لأسبوع الامتحانات الفصلية.

كل الأحاديث في الثانوية كانت تدور حول التحضيرات، والكل يسأل:

"من راح يطلع الأول هالمرة؟ آدم؟ ولا ماريا تلحق بيه؟"

ماريا جلست في مقهى صغير، دفتر الفيزياء أمامها، القلم في يدها، لكن عقلها... مشتت.

رن هاتفها، كانت رُلى.

–"وين وصلتي بالمراجعة؟"

–"صفر! حتى قوانين الحركة نسيتهم."

–"خلي نراجع سوا بالثانوية، يقولوا آدم والناجحين دارو مجموعة مراجعة..."

سكتت ماريا، ثم قالت بحدة:

–"ما راح أراجع مع آدم."

في اليوم التالي، اجتمعت أقوى العقول في القاعة B4، حيث شكلت المدرسة مجموعات مراجعة، بإشراف الأستاذ المسؤول.

دخل آدم، يلقي السلام بثقة، يتوسط القاعة، يضع سماعاته حول عنقه، يحمل دفتره المليء بالملاحظات.

جلست ماريا في الزاوية... تتابعه من بعيد دون أن تعترف لنفسها أنها تسترق النظر.

رفع الأستاذ عينيه من الأوراق وقال:

–"آدم... ماريا... راح تقدموا شرح اليوم للمجموعة حول قوانين الديناميكا."

تجمدت ماريا:

–"أنا؟ معاه؟ مستحيل!"

لكن الأستاذ رد بثبات:

–"هذه تعليمات الإدارة... والمنافسة لا تعني العداوة."

وقف آدم وقال بثقة:

–"ولا يهم، بس يا أستاذ لازم تتأكد إنها ما تعارض كل كلمة أقولها... كالعادة."

نظرت إليه وقالت:

–"أنا ما أعارض... أنا فقط أصحح أخطاءك."

ضحك الجميع.

بدأ الشرح، وكلما قال آدم قاعدة، قاطعته ماريا بملاحظة، وهو يرد بالسخرية.

–"هذا التعريف ناقص."

–"وأنتِ دائماً تحبي الإطالة بدون فائدة."

–"المعلومة لازم تكون دقيقة."

–"وأنا دقيق... بس إنتِ مزعجة."

في كل جلسة، كان الخلاف يتكرر، لكن العجيب... أن المجموعة كانت تتعلم أكثر بسبب نقاشاتهم!

رُلى همست لإياد، أخ ماريا:

–"هذو الاثنين... لو يشغلوا طاقتهم في الحب بدل النقاش، راح يبدعوا."

ضحك وقال:

–"ما راح يعترفوا أبداً... بس إحنا نشوف كل شي."

مر الأسبوع، وكل ليلة كانت ماريا تعود مرهقة، لكن عيناها تلمعان.

وفي آخر يوم، في المكتبة، بينما كانت تراجع وحدها، اقترب منها آدم:

–"حابة نراجع آخر فصل سوا؟ من غير مشاجرات."

رفعت عينيها وقالت:

–"بس لو وعدت ما تعلق على طريقة شرحي."

–"وأنتِ... لا تتكبري علي لو نسيت قانون."

نظرا إلى بعضهما لثانية، ثم تبادلا ابتسامة خفيفة... فقط للحظة.

ثم قال آدم:

–"بس أوعديني... لو جبتِ أعلى مني، تعترفي أني ساعدتك."

ضحكت وقالت:

–"ولو جبت أقل منك، أوعدك... راح أدرس ضعف الوقت لأسبقك المرة الجاية."

وهكذا، انتهى الأسبوع... لكن لم تنتهِ قصتهما.

الفصل الثالث عشر

يوم النتائج... والمفاجأة!

استفاقت ماريا في ذلك الصباح بقلب يرتجف، يداها ترتعشان وهي تربط حقيبتها. أسبوعٌ كامل مرّ منذ الامتحانات، والكل يتحدث عن يوم إعلان النتائج وكأنه يوم القيامة.

وصلت إلى ساحة المدرسة، فوجدت التلاميذ مجتمعين حول السبورة الرئيسية، بعضهم يضحك، والبعض الآخر وجهه شاحب.

رأت رُلى واقفة هناك، تصرخ بحماس:

–"ماريا!!!! تعالي شوفي!"

ركضت ماريا إليها ودفعت التلاميذ برفق حتى اقتربت من الورقة المعلقة، تمسكت بيد رُلى، وعيناها تمشيان سطرًا بسطر... حتى وصلت إلى اسمها:

ماريا إياد – المعدل: 20/18.50

شهقت بصوت عالٍ:

"18 –ونص؟؟"

ثم نزل بصرها إلى السطر الذي تحته مباشرة... فتجمدت.

آدم سيف الدين – المعدل: 20/18.50

–"وش؟! لاااااا!"

ظهر صوت مألوف خلفها، ساخرًا:

–"عادي، لما تشتغلي معايا... تطلعي متفوقة."

التفتت إليه ببطء، لتجد آدم واقفًا، يبتسم بثقة، يضع يديه في جيبيه وكأنه توقّع الأمر.

–"مش ممكن... هذا كابوس!"

ضحك وقال:

–"أحسن كابوس، لا تهربي من الحقيقة."

ثم تقدم الأستاذ المسؤول ومعه المدير، وصفّق الجميع عندما قال بصوت عالٍ:

–"هذه السنة... حصلنا على مفاجأة! أعلى معدل مشترك بين تلميذين من نفس المجموعة الدراسية: ماريا إياد... وآدم سيف الدين!"

صفّق الطلاب بحرارة، بينما حاولت ماريا أن تخفي ابتسامتها، لكنها فشلت.

تقدما معًا لاستلام الجوائز الرمزية من الإدارة، والتقطت لهما صورة مشتركة، رغم احتجاج ماريا:

–"لاااا، خلّي الصورة لحالو!"

ضحك المدير:

–"التفوق جماعي، والنجاح نتيجة تعاونكما، خليه ذكرى جميلة."

وقبل أن تغادر المنصة، همس آدم:

–"سجلنا تعادل... الجولة الجاية راح أكسر الرقم."

ردّت ماريا بابتسامة متحدّية:

–"وأنا... راح أرجّع الصدارة لحالي."

الفصل الرابع عشر

"ماريا... خطيبتي!"

كانت ساحة الثانوية تعجّ بالطلبة، ضحكات تتعالى، ودّاع بين الزملاء، وصدى الكلمات يتردد في الأجواء. اليوم هو نهاية الفصل الدراسي، والكل في حالة نشوة وراحة بعد موسم طويل من التعب والمذاكرة.

ماريا كانت تقف قرب الشجرة الكبيرة، تتبادل الضحكات مع رُلى و إياد، قبل أن يقترب منهما ياسين –صديق طفولتها الذي كان دائمًا يرافقهما في كل مراحل الدراسة.

نظر إليها بخجل، قلبه يخفق بقوة، ثم قال بصوت مسموع أمام الجميع:

–"ماريا، نعرف باللي كبرنا مع بعض، لكن... أنا من زمان عاجبني طبعك وقلبك... وأنا... نحبك!"

تجمّدت ماريا في مكانها، واتسعت عيناها، كل من في الساحة التفتوا إليهما، حتى رُلى همست مصدومة:

–"وش راهو يدير؟ قدام الناس كامل!"

لم تستطع ماريا قول أي شيء، كان الصمت يحيط بها، ليس لأنها تقبل، بل لأنها لا تريد إحراجه أمام الجميع، فهو صديق طفولتها.

وفجأة، وسط الصدمة... انطلق صوتٌ حاد، غاضب:

–"توقف."

التفت الجميع، ليظهر آدم وهو يشق الصفوف بخطوات واثقة. نظراته ثابتة على ياسين، ووجهه لا يخفي غضبه.

اقترب من ماريا، أمسك يدها وسحبها نحوه، ثم وقف بينها وبين ياسين وقال بصوتٍ عالٍ وحازم:

–"لا أحد يقترب من ماريا."

صمت رهيب عمّ المكان.

ثم أكمل آدم، بنبرة غيورة، أمام الجميع:

–"ماريا خطيبتي... هل فهمت؟ أم أعيد؟"

شهقت ماريا، وشعرت بوجهها يحترق من شدة الخجل. همست:

–"وش راهو يقول؟ خطيبته؟!"

بينما كانت رُلى تضع يدها على فمها، تحاول كتم ضحكتها ودهشتها في آنٍ واحد.

أما ياسين، فقد خفض رأسه وقال بصوت منخفض:

–"آسف... ما كنتش نعرف."

استدار بعدها وغادر المكان بهدوء، تاركًا الجميع مذهولين.

نظرت ماريا إلى آدم، سحب يدها من قبضته وقالت بنبرة خافتة:

–"خطيبتي؟ منين جبتها ذي؟"

ابتسم آدم بخفة وقال بصوتٍ منخفض:

–"ما حبيتش أي واحد يقرّبلك... حتى لو كنت نحب نزعف منك، ما نقدرش نسمح لأي أحد يخطفك."

رمقته بنظرة طويلة، ثم التفتت عنه دون أن ترد.

لكن قلبها... لم يعد كما كان.

الفصل الخامس عشر

"أنتَ شريكي في المسرحية؟!"

بدأ الفصل الدراسي الثاني، والكل عاد إلى الثانوية بعد عطلة قصيرة لكنها كانت كافية لتجديد الحماس... أو على الأقل، هذا ما كانت ماريا تحاول أن تقنع نفسها به وهي تخفي توترها.

منذ ذاك اليوم في الساحة، عندما قال آدم أمام الجميع إنها "خطيبته"، تغيّر شيء في قلبها... شيء لم تستطع حتى الآن أن تُعرّفه، أو تعترف به.

دخلت ماريا القسم بخطوات ثابتة، تظاهرت باللامبالاة وهي ترى آدم جالسًا في مقعده كأن شيئًا لم يحدث. التقت نظراتهما للحظة، ثم بسرعة أدار وجهه للنافذة، وكأنها لم تعد تعني له شيئًا.

"تفو! تمثيل محترف هذا!"، همست لنفسها وهي تنظر إليه من طرف عينها.

بعد بضع حصص، دخلت الأستاذة سهى، المشرفة على الأنشطة الثقافية، وهي تحمل ورقة بين يديها وقالت بحماس:

–"كما تعلمون، كل فصل سيُقدم مشهدًا مسرحيًا في حفل نهاية السنة، وقد قررت الإدارة أن يمثل طلاب سنة أولى مشهدًا دراميًا عن الصداقة والحب في زمن الثانوية."

صمت الجميع، وبدأت الهمسات تنتشر، ثم قالت الأستاذة:

–"وقد اخترت بنفسي من سيمثل دور البطولة في الفصل A... الثنائي سيكون :ماريا و... آدم."

شعرت ماريا وكأن الأرض اهتزت تحت قدميها. شهقت بصوت منخفض:

–"واش؟؟ آدم؟؟"

التفت إليه بسرعة، فوجدته يحدّق بالأستاذة بصدمة، ثم التفت إليها بنظرة لم تستطع قراءتها، مزيج من الغضب، الدهشة، وربما... القليل من الحرج.

رفعت ماريا يدها فورًا:

–"أستاذة، عذرًا! هل يمكنني تغيير شريكي؟"

ضحكت الأستاذة بلطف:

–"لا، الاختيار نهائي، وأعتقد أنكما ستكونان ثنائيًا مميزًا."

همست رُلى من الخلف:

–"يخي حظ؟ ربي كتبلك تكوني بطلة معاه فالحقيقة وفي المسرح!"

ردت ماريا بوجه محمرّ:

–"بطلة ولا ضحية؟"

**

بعد الحصة، اقترب آدم منها لأول مرة منذ حادثة "الخطيبة"، وقال ببرود:

–"ما تقلقيش، راح نتصرف كأنك مجرد زميلة... مش أكتر."

نظرت إليه باستفزاز:

–"تمام، وأنا راح أتصرف كأنك مجرد مشهد سخيف لازم أمثّله."

قال بابتسامة خبيثة:

–"ممتاز... بس حاولي ما تقعيش فحبي عن طريق الغلط."

ردت بسرعة:

–"رح أكتبها على جبيني: ممنوع الوقوع في حب المتغطرسين!"

**

وهكذا بدأت أولى تدريبات المسرحية...

تمثيل أمام الجميع، لكن في القلب؟

كل واحد يحاول يخفي إعجابه ويمثّل دور العدو...

بس المشاعر الحقيقية؟ راح تبدأ تطلع مع الوقت.

الفصل السادس عشر

"آدم... في بيتي؟!"

في مساء اليوم الموالي، كانت ماريا تقف في المطبخ، تربط شعرها على شكل كعكة فوضوية، ترتدي مئزر الطهو وتساعد والدتها "أروى" في تحضير العشاء.

قالت الأم وهي تذوق قليلاً من الصلصة:

–"أتعلمين يا ماريا؟ صديقتي كوثر ستأتي الليلة... معها ابنها، شاب محترم جدًا، يدرس مثلك، ذكي، وأنيق... أعتقد أنه في سنك تقريبًا."

رفعت ماريا حاجبيها بتذمر وهي ترتب الصحون:

–"أمي، أرجوكِ، لا تبدأي مشروع الخطبة هذا مجددًا."

ضحكت أروى وقالت:

–"ليس خطبة يا فتاة! مجرد تعارف... ثم إن كوثر دائمًا تمدح ابنها. تخيّلي، تقول إنه الأول على مدرسته!"

ردت ماريا بسخرية:

–"هاه؟ مثل آدم تقريبًا؟ يا له من حظ سيئ أنني لا أحب الأول على المدرسة!"

**

دقّ جرس الباب، وذهبت أروى تفتحه، لتدخل كوثر بابتسامتها العريضة، تعانق صديقتها، ثم تلتفت للخلف قائلة:

–"تفضل بني، لا تكن خجولًا."

دخل الشاب، يرتدي سترة داكنة أنيقة، بابتسامة هادئة... وما إن التفتت ماريا لترحب بالضيوف، حتى تجمدت في مكانها.

–"آدم؟!"

صرخت بدهشة وهي تشير إليه.

–"أنت؟!"

ابتسم آدم بخبث وهو يضع يديه في جيبه:

–"ماريا؟ يا لها من مفاجأة غير متوقعة."

وقفت ماريا في ذهول، وكأن الوقت توقف، ثم نظرت إلى والدتها وقالت بصوت مرتفع:

–"أمي! هذا آدم! زميلي، عدوي،... الكارثة التي جعلتني أفقد هاتفي وأعصابي!"

تبادلت الأمّان النظرات، كل واحدة تبحث في وجه الأخرى عن تفسير.

ضحكت كوثر بارتباك:

–"آدم، ألم تخبرني أن لديك صديقة اسمها ماريا في المدرسة؟"

هز آدم كتفيه بلا مبالاة:

–"أوه، نسيت... نحن أقرب إلى منافسين من أصدقاء."

**

اقتربت ماريا من المطبخ وهمست لأمها:

–"قولي لي إن هذا كابوس وسأستيقظ قريبًا."

ردّت أروى وهمست:

–"العكس يا حبيبتي، يبدو لي أنه حظك الجميل."

قالت ماريا بين أسنانها:

–"إن كان هذا حظي، فأنا لا أريد نصيبي بعد اليوم."

**

جلس الجميع على العشاء، وكانت الأجواء متوترة ومضحكة في آن واحد. كلما تكلم آدم، رمقته ماريا بنظرة "لا تفتح فمك كثيرًا".

وكلما تحدثت هي، كان يردّ بإجابة تغضبها أكثر.

قال آدم وهو يبتسم لوالدة ماريا:

–"سيدة أروى، الطعام شهي... واضح من أين ورثت ماريا طباعها الحادة!"

ردت ماريا بسرعة:

–"وأنا أراك لم ترث شيئًا من اللطف من والدتك... فقط الغرور!"

**

بعد العشاء، جلست ماريا في غرفتها، مصدومة، تراجع ما حدث:

–"آدم؟ ابن صديقة أمي؟ يا للكارثة... هذا يعني أننا سنتقابل أكثر! يا رب، اجعلها آخر مرة..."

لكن قلبها، رغم كل شيء، بدأ ينبض بشيء... غريب.

الفصل السابع عشر

"عشاءٌ غير هادئ"

أعلنت إدارة المستشفى عن قانون جديد:

"نظرًا لضغط العمل وتناوب المناوبات، سيكون هناك نظام جديد بين الأطباء الجراحين، حيث يتم تبادل الورديات يومًا بيوم. وفي أيام الإجازة، تتكفل الجراحة غير المناوبة بتحضير العشاء إن كان هناك ضيوف مشتركين في البيت العائلي."

وكان أول يوم من هذا التناوب... من نصيب "كوثر".

ويا لسوء حظ ماريا.

**

كانت ماريا تتذمر وهي تساعد كوثر في ترتيب المائدة:

–"لا أصدق أنني سأقضي المساء مع آدم... مرة أخرى!"

ضحكت كوثر برقة وهي ترتب الأطباق:

–"لمَ كل هذا التوتر؟ أنتما تبدوان كثنائي رائع في المدرسة، والجميع يتحدث عن أدائكما في المسرحية القادمة."

تمتمت ماريا في نفسها:

–"رائع؟ نحن ثنائي الكوارث، لا أكثر!"

**

رن جرس الباب.

فتحت ماريا لتجده واقفًا هناك، وسيمًا كعادته، يحمل ملفًا صغيرًا بيده.

قال وهو يبتسم بسخرية:

–"أوه، ها هي النجمة. هل أنهيت حفظ الحوار أم سأضطر لإنقاذك مجددًا؟"

ردت وهي تتنهد بغيظ:

–"أنا من سأحفظك الحوار، فقط اجلس ولا تثرثر كثيرًا!"

دخل آدم، وجلس إلى الطاولة، ثم قال:

–"رائحة الطعام رائعة... أمي، أبدعتِ كالمعتاد."

نظرت إليه ماريا بخفة:

–"غريب... لم أتوقع أن تملك ذوقًا جيدًا في الطعام أيضًا."

ابتسم بازدراء:

–"وهل تظنين أنني مثل ذوقك في اختيار الأصدقاء؟"

ردت بسرعة:

–"على الأقل أصدقائي لا يختلسون الهواتف من المدير."

رفع حاجبيه، متصنعًا البراءة:

–"أوه، ما زلنا نعيد تلك القصة؟ قلت لكِ... كنت أساعدك فقط."

قاطعتهم كوثر وهي تضع آخر طبق:

–"أتعلمان؟ أنتما فعلاً مثل الزوجين العجوزين، لا تتوقفان عن الشجار!"

قالا في نفس الوقت:

–"مستحيل!"

**

بعد العشاء، جلسا في الصالون لقراءة مشهد من المسرحية.

تقمص آدم الشخصية الرومانسية ببراعة، وقال بصوت خافت:

–"ماريا... إنني أحبك، رغم كل خلافاتنا، رغم عنادك، إلا أنني... لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير بك."

نظرت إليه ماريا بدهشة، ثم قالت:

–"انتظر... هذا ليس في النص!!"

ضحك قائلاً:

–"أعرف... أردت فقط رؤية ردّة فعلك."

قالت وهي تضربه بالوسادة:

–"آدم! أنت حقًا... مستفز!"

ضحك بصوت عالٍ، ثم قال وهو يفتح النص الحقيقي:

–"هيا، نبدأ من الصفحة الخامسة عشر، قبل أن أغيّر رأيي وأتركك تواجهين الجمهور وحدك."

**

وفي خبايا القلب، كان هناك شيء خفي... يكبر، ويتسلل، رغمًا عنهما.

شيء لا يشبه العداء، ولا يشبه الصداقة... شيء بدأ يتلوّن بلون جديد.

الفصل الثامن عشر

"بين ضحكة وخدعة"

كان مساءً هادئًا على غير العادة.

ذهبت ماريا ووالدتها سلوى إلى بيت كوثر لتناول العشاء. كان هذا اليوم هو الأخير قبل عرض المسرحية المدرسية التي عملا عليها طيلة الأسبوعين الماضيين.

لم تكن هناك مشاحنات كثيرة... بل العكس.

جلس آدم إلى جانب ماريا في الصالون، يحملان النص بين يديهما، يتبادلان النظرات دون أن يدركا أنهما قد نسيا معظم الخلافات.

ضحكت ماريا على جملة ألقاها آدم بطريقة مضحكة:

–"آدم، أنت فعلاً تصلح للكوميديا، أكثر من الرومانسية!"

ردّ وهو يبتسم بنعومة نادرة:

–"وأنتِ تصلحين لأن تكوني... شيء آخر، لا يشبه أي أحد."

سكتت للحظة، وقلبها يخفق بخفة لم تفهمها... ثم غيّرت الموضوع بسرعة.

–"هيا، تابع من المشهد السادس، ركّز رجاءً!"

أومأ آدم برأسه وابتسم بخبث، بينما كان ينقل نظراته بخفّة إلى هاتفها الموضوع على الطاولة.

لحظة شرود بسيطة منها كانت كافية... ليأخذ رقمها، ويحفظه في هاتفه باسم:

"العدوة الجميلة 🔥😉 "

**

في اليوم التالي، كانت ماريا ترتب كتبها استعدادًا للخلود للنوم حين وصلتها رسالة غريبة على واتساب من رقم مجهول:

–"انزلي، أنا تحت بيتك."

رفعت حاجبيها بدهشة:

–"من هذا؟"

قبل أن تفكر كثيرًا، أتتها رسالة أخرى:

–"لا تخافي، فقط افتحي النافذة... ستجدين المفاجأة."

فتحت الستار ببطء... لتجد آدم واقفًا هناك، يحمل دفترًا صغيرًا، يلوّح به وكأنه يحمل كنزًا.

خرجت إليه بسرعة وهي تقول:

-"آدم؟ كيف حصلت على رقمي؟!"

ضحك وقال:

-"فلنقل... أنني أذكى مما تتخيلين."

نظرت إليه بنصف غضب ونصف ضحكة:

-"أنت تتجسس عليّ؟!"

-"بل فقط... أراقب عدوتي اللدودة عن قرب." قالها بخفة، ثم تابع:

-"أردت فقط الحديث عن المسرحية... لقد كانت بروفة الأمس جيدة، لكن هناك بعض المشاهد تحتاج إلى تنسيق أكثر."

سارا معًا في الشارع، ببطء... تحادثا، ضحكا، وتجادلا قليلاً كعادتهما، لكن الجو كان مختلفًا هذه المرة.

كان أقرب للسكينة... كأن بينهما بداية صداقة حقيقية، أو ربما بداية شيء أكبر.

وقبل أن تودّعه، التفت إليها وقال:

-"ماريا... المسرحية ليست سوى تمثيل، لكن... هناك لحظات، تبدو حقيقية جدًا."

نظرت إليه، وقلبها ينبض بخفة:

–"آدم... لا تبدأ بالهذيان، هيا عد لمنزلك."

ضحك، لوّح لها، وغادر... تاركًا وراءه فتاة تضع رأسها على الوسادة، تبتسم في الظلام دون أن تدري لماذا.

الفصل التاسع عشر

"حين صعدنا معًا على المسرح"

استيقظت ماريا باكرًا على غير عادتها. كانت الشمس تلامس وجنتيها برفق من خلف النافذة، وقلبها يخفق بشعور غريب... لم يكن توترًا فقط، بل شيء آخر، لا اسم له.

كانت أمها قد جهّزت لها ثوبًا أبيض بسيطًا، يناسب الدور الذي ستؤديه، ووضعت لها لمسات خفيفة من المكياج.

في الخارج، كان آدم ينتظرها كالعادة، لكنه هذه المرة كان أنيقًا، يرتدي بدلة سوداء بسيطة، وشعره مصفف بعناية.

تقدّمت إليه بتوتر وهي تقول:

–"لا تضحك، أحس أني غريبة بهذا الشكل."

ردّ مبتسمًا:

–"بل تبدين... مناسبة تمامًا للدور، لا تغيري شيئًا."

ركبا معًا في سيارة كوثر، والدته، التي كانت سعيدة ومتأثرة، تلتفت إليهما من المرآة بين الحين والآخر، تهمس لنفسها بابتسامة:

–"يا لهما من ثنائي غريب... لكن جميل."

**

في المدرسة، كانت القاعة ممتلئة. أولياء الأمور، الأساتذة، وبعض الزملاء جاؤوا لمشاهدة أول عرض مسرحي لهذا الفصل.

خلف الستار، وقفت ماريا ويداها ترتجفان، تحمل النص وتعيده بصوت خافت.

اقترب منها آدم وهمس:

–"ماريا... لا تقلقي، سأكون معك على الخشبة. إن سقطتِ، سأسندك، و إن نسيتِ، سأهمس لك الكلمات."

نظرت إليه بدهشة:

–"هل هذا أنت؟ آدم المتعجرف يقول شيئًا لطيفًا؟"

ضحك بخفة وقال:

–"أنا فقط... أمثّل دوري."

رفعت حاجبيها وقالت:

–"احذر فقط ألا تبالغ في التمثيل."

**

بدأت المسرحية...

كان الصمت يخيّم على القاعة. ماريا وقفت في المنتصف، تؤدي دور الفتاة الحالمة التي تحاول الوصول إلى أحلامها، بينما آدم كان شابًا جادًا يقاطع طريقها في كل مشهد.

كلما نظرا إلى بعضهما فوق الخشبة، كان الجمهور يشعر بشحنات غريبة... وكأنهما لا يمثلان، بل يعيشان كل كلمة، كل نظرة.

وفي المشهد الأخير، حين قال آدم:

–"قد لا أكون الحلم الذي رغبتِ به، لكني الشخص الوحيد الذي لن يسمح لك بالسقوط."

تجمّدت ماريا لثوانٍ، ونظرت إلى عينيه مباشرة، وشعرت أن الجمهور اختفى... أن الكلمة كانت لها فقط.

همست بالكاد:

–"ولم أكن أريد غيرك... حتى إن لم أعترف بذلك من قبل."

**

انتهى العرض بتصفيق حار.

وقف الجميع يصفقون طويلاً، وانحنى آدم وماريا معًا أمام الستار.

ثم نظرت إليه وهمست:

–"هل كنتَ تمثّل... أم كنتَ صادقًا؟"

ابتسم وقال:

–"ماريا... من قال إنني أعرف الفرق بعد الآن؟"

**

وفي زاوية المسرح، كانت كوثر وأروى، الأمهات، تبتسمان بصمت... كأنهما تعلمان شيئًا لم يقله بعد أي منهما.

الفصل العشرون

"العام الأخير... والخطوة الأصعب"

مرّ عامان سريعان كنسمةٍ عابرة.

ماريا وآدم لم يعودا أعداء... بل أصبحا أقرب مما يتخيّله الجميع.

اعتاد الجميع رؤيتهما معًا في المكتبة، في باحة المدرسة، أو يتناقشان تحت شجرة الزيزفون عند الزاوية الهادئة من الفناء.

كانا يُذاكران لساعات، يتبادلان الملاحظات، وحتى الجدالات... لكن هذه المرة، كانت نقاشاتهما مملوءة بالنضج، بالاحترام، وبذلك الحنين الذي لا يُقال بصوت.

**

في بداية العام الدراسي الجديد، عُلّقت لافتة ضخمة على مدخل الثانوية:

"عام مصيري... شهادة التعليم الثانوي."

سكنت القلوب، واشتدت الضغوط، وامتلأت الدفاتر بالحبر الأسود.

كانت ماريا تشعر بثقل هذه السنة كأنها تحمل العالم كله على أكتافها.

وفي إحدى الليالي، كانت الساعة تقارب الواحدة بعد منتصف الليل، أرسلت له رسالة:

ماريا :"آدم... مش قادرة أكمل... كل شيء فوق رأسي."

رد بعد لحظات:

آدم :"ماريا، إنتِ أقوى من الخوف. لو نسيتِ، خليني أذكّرك، إنتِ من وقفت قدامي على المسرح بدون ما ترمش. امتحان؟ لعبة بالنسبة لك."

ضحكت وهي تمسح دمعة صغيرة على خدها:

–"غبي... دائمًا تعرف كيف تخرجني من قاعي."

ردّ بسرعة:

–"وأبقى هناك، عشان ما ترجعيش تسقطي."

**

جاء يوم الامتحان...

كانت المدرسة تموج بالطلاب، الكل متوتر، أوراق تلوّح في الهواء، أدعية تُهمَس بصوت خافت.

وقفت ماريا أمام الباب، أناملها ترتجف.

اقترب آدم منها، ونظر إليها بثقة.

–"اسمعي، هذا الامتحان مش راح يحدد مين إنتِ. هو مجرد خطوة. لكن... أنا عارف إنك راح تكسريه."

نظرت إليه بامتنان، وعيناها تمتلئان بالماء.

–"شكراً... وجودك جنبي فارق كبير."

ابتسم وقال:

–"كنت دائماً هنا... و إلى آخر الطريق، سأبقى."

**

رنّ الجرس.

دخلوا القاعة.

وبدأ العدّ التنازلي للحلم الكبير.

الفصل الثاني والعشرون

"حين اقترب الحلم"

مرّت أيام الفرح والاحتفالات سريعًا، وكأنها لم تكن، وجاء وقت الحقيقة.

وقت أن يقرر كلٌّ منهما طريقه، ووجهته التالية في هذه الحياة التي لم تعد مجرّد مقاعد دراسية وجداول محفوظة.

**

جلست ماريا على مكتبها، تقلب أوراق التوجيه الجامعي.

أمامها كانت تلمع عبارة واحدة فقط:

"تصميم الأزياء – المعهد العالي للفنون"

قالت باندهاش:

–"هل سأبدأ أخيرًا؟ هل سأصنع فساتيني؟ أعرض تصاميمي؟"

دخلت والدتها الغرفة، فوجدتها تبتسم للورقة.

قالت:

–"صممتي طريقك كما كنتِ ترسمين على دفاترك... فليكن هذا حلمك، وأنا معكِ."

دمعت عينا ماريا، فكتبت في خانة الاختيار دون تردد:

"التخصص: تصميم الأزياء"

**

أما آدم...

فلم يكن يفكر كثيرًا، فقد عرف طريقه منذ زمن.

وقف أمام شاشة الكمبيوتر وكتب ببساطة:

"كلية الطب – جامعة العاصمة"

قال لنفسه:

–"الطب حلمي... أريد أن أنقذ الأرواح، أُعيد الابتسامات."

لكنه، للحظة، فكّر في ماريا...

هل سيبعدهما اختلاف المدن؟ هل سيتباعدان مع اختلاف التخصص؟

لكنّه ابتسم وهو يقرأ رسالتها التي وصلته في نفس اللحظة:

"سنعيش أحلامنا... و إن اختلفت الأروقة، ستجمعنا النية نفسها: أن ننجح."

**

في مساء اليوم ذاته، خرجا معًا في نزهة هادئة.

قالت ماريا، وهي ترتدي وشاحًا بلون الخزامى:

–"تصميم الأزياء ليس سهلاً... لكنه عالمي."

ضحك آدم وقال:

–"والطب ليس سهلاً... لكنه عالمي أيضًا. سنلتقي في العالم ذاته، لكن بزوايا مختلفة."

صمتت للحظة، ثم سألته:

–"هل تخاف من البعد؟"

أجابها وهو ينظر للسماء:

–"أخاف من ألاّ ننجح... أما البعد؟ فأنا واثق أننا سنتقابل عند قمة الحلم."

**

كانت تلك لحظة وداع البداية...

وداع الطفولة والمراهقة والمشاكسات، واستقبال مرحلة جديدة، بحبٍّ صامت، ونضجٍ يلمع في العيون.

الفصل الثالث والعشرون

"بعيدان... لكن لا نغيب"

دخلت ماريا إلى السكن الجامعي بمدينة *وهران*، تجرّ حقيبتها بخطى مترددة.

نظرت إلى المبنى الضخم والطلاب الذين يتحركون من كل الجهات، والهمسات التي تختلط بلغات ولهجات مختلفة.

همست لنفسها:

–"مرحلة جديدة... وماريا جديدة."

**

أما آدم، فكان يقف أمام بوابة كلية الطب في العاصمة، يحمل على ظهره حقيبة سوداء، ويضع السماعات في أذنيه.

لكنّه لم يكن يستمع للموسيقى، بل كان يستمع لتسجيل صوتي أرسلته ماريا، بصوتها الناعم:

–"آدم، لا تتأخر في أول محاضرة! ولا تتعامل بجفاف كالعادة... حاول تبتسم، ولو شوي."

ابتسم لا إراديًا، ثم همس:

–"أنتِ دايمًا معاي، حتى لو بعيدة."

**

في المساء، بعد أول يوم دراسي مزدحم، اتصل بها:

–"ألو، ماريا... كيف كان يومكِ؟"

–"ما راح أقولك إنه كان سهل، بس حبيت المكان! تعرفت على بنت من جيجل، ضحكتها تشبه ضحكتي، وأحسها راح تصير صديقتي."

–"جميل... وأنا، تعرفت على شاب من سطيف، عبقري... لكن مش قدك في العناد."

ضحكا معًا.

–"آدم، وعدني... تبقى تتصل كل يوم."

–"ماريا... ما أقدر أبدأ يومي بدونك، ولا أنهيه بدون صوتك."

**

وهكذا...

رغم بعد المدن، واختلاف التخصصات، وضغط الدراسة،

كانت قلوبهما معلّقة بخيط خفي: رسائل، صور، مكالمات، وحتى بعض الشجارات الصغيرة.

**

[📱 رسالة من ماريا - منتصف الليل]

آدم، اشتقت لخناقاتنا في المدرسة... الحياة بدون مشاكلك صايرة مملّة.

[📱 رد آدم]

اشتاقلك، حتى وأنتِ تصيحين عليّ. متى العطلة؟

[📱 ماريا]

باقي شهر... وأول مكان أروح له لما أرجع، هو ساحة المدرسة. نتلاقى هناك؟

[📱 آدم]

أكيد... عند الساحة، نفس المقعد، نفس التوقيت.

الفصل الرابع والعشرون

"رسائل لا تصل"

مرت الأسابيع ثقيلة على ماريا وآدم.

السنة الأولى في الجامعة لم تكن سهلة، والضغط يتزايد، والجداول تضيق، وحتى السهرات أصبحت بلا مكالمات.

**

كانت ماريا تجلس في مكتبتها الصغيرة، محاطة بكتب التصميم، بين الرسم والخياطة والنظريات الفنية.

تفحصت هاتفها.

آخر رسالة من آدم منذ ثلاثة أيام...

كتبت بخفة:

📱 *"أشتقت."*

ثم مسحت الرسالة.

ثم أعادت كتابتها.

ثم أغلقت الهاتف دون أن ترسلها.

**

أما آدم، فكان بين المحاضرات والورشات والتدريبات الطبية.

ملامحه مرهقة، وعيونه شاردة.

فتح الهاتف ووجد رسالة صوتية قديمة من ماريا، وهي تضحك وتقول:

–"يا دكتور المستقبل، متى راح تخلص وتجي تشوف تصاميمي؟"

ابتسم... ثم أغلق الهاتف.

**

وفي نهاية الشهر، جاءت المفاجأة.

أروى، أم ماريا، دخلت إلى غرفتها وعلى وجهها ابتسامة فخر:

–"ماريا! وصلكِ قبول رسمي... منحة دراسية للسعودية! فرصة ذهبية بنتي، رح تسافري وتدرسي في أكبر معهد تصميم في جدة!"

شهقت ماريا، وقلبها ينبض بين الحلم والخوف.

وفي نفس الوقت، كان آدم يتلقى اتصالاً من أستاذه:

–"آدم، تم قبولك ضمن بعثة طبية إلى فرنسا. هذا الحلم اللي ساعيت له صح؟"

**

مر يومان...

لم يتصلا ببعض.

لم يخبر أحدهما الآخر.

كأن بينهما اتفاق صامت على كتمان الخبر... ربما خوفًا من الفراق، أو من الضعف.

**

مرت أيام، ثم أسابيع...

انشغلت ماريا بتحضيرات السفر، التكوينات، الأوراق، التفاصيل.

وآدم، كان في دوامة الترتيبات، اللقاحات، البرامج.

[📱 آخر رسالة من ماريا]

"آدم، لو بعدنا... تذكر دايمًا إنك كنت أول شخص فهمني."

[📱 رسالة لم تُفتح بعد].

**

وهكذا...

تفرّق الطريقان.

وساد الصمت بين ماريا وآدم، لكن الذكريات... بقيت.

الفصل الخامس والعشرون

"حقائب من صمت"

كانت السماء ملبدة في ذلك الصباح.

ماريا تمسك بجواز سفرها بقوة بين يديها، بينما نظراتها تائهة في المطار.

سماعة في أذنها تبث أغنية هادئة، وصوت المغنية يهمس:

"كلّ شيء تغيّر... حتى نحن."

أروى كانت واقفة بجانبها، تمسك حقيبة صغيرة، وعيناها تلمعان بالدموع:

– "ماريا... فخورة فيكِ يا بنتي. بس... لا تنسي من تكوني، حتى ولو بعدتي."

ابتسمت ماريا نصف ابتسامة، وعيناها تبحثان في الزحام عن وجه مألوف...

لكن آدم لم يأتِ.

**

في الطرف الآخر من المطار، وفي بلد آخر، كان آدم يضع سماعات الأذن، يجر حقيبته الثقيلة نحو البوابة.

حسام، صديقه من الجامعة، قال:

–"ما حبيت تودّعها؟"

آدم ابتسم دون أن ينظر إليه:

–"أفضل تفتكرني وأنا بجانبها، مش في لحظة وداع."

ثم نظر إلى السماء من الزجاج العريض، وهمس:

–"ماريا... راح تظلي في مكانك عندي. حتى لو صرت بعيد."

**

في الطائرة

أغمضت ماريا عينيها، تتذكر أول لقاء، أول مشاجرة، أول مرة قال فيها "ماريا خطيبتي"...

ضحكت بصمت، ومسحت دمعة سالت دون إذن.

وفي طائرة أخرى، بعيدة فوق بحر آخر، أغلق آدم دفتر ملاحظاته الطبية، وفتح صندوق الرسائل القديمة في هاتفه، واستمع لتسجيل صوتي بصوتها:

–"آدم، لا تغيب عني، حتى ولو كنت في مدينة بعيدة."

**

وهكذا بدأت رحلتهما الجديدة.

هي في السعودية، تعيش أيامها بين التصميم والحصص والمعارض.

وهو في فرنسا، بين المستشفيات والبحوث.

تباعدت الرسائل، وقلّ الاتصال، لكن شيئًا في القلب ظل مشتعلاً...

شوق لا ينطفئ، وحنين لا يُقال.

الفصل السادس والعشرون

"مدنٌ لا تعرفنا"

✦ماريا في الرياض – كلية التصميم والفنون✦

المدينة مختلفة، الإيقاع سريع، الناس لا يعرفونها، والوجوه كلها جديدة.

ماريا تسكن الآن في سكن جامعي راقٍ للفتيات، غرفتها صغيرة لكنها مريحة، تُزيّن جدرانها برسوماتها ومجلات الموضة، وعلى المكتب تقف ماكينة خياطة صغيرة، ودفاتر مليئة بالأفكار.

كل صباح تبدأ يومها بالقهوة، ثم تنطلق إلى قاعة المحاضرات حيث تُدرّسها مصممات شهيرات، وتشاهد عروضًا عالمية، وتتعلم كيف يتحوّل الخيال إلى أقمشة تمشي على خشبة العرض.

كوثر، زميلتها الجديدة من جدة، أصبحت أقرب صديقة لها.

ضحكاتهن تملأ الغرفة ليلاً، لكن حين تنام كوثر، تخرج ماريا هاتفها، تفتح صورًا قديمة... وتتذكر عينيه.

أحيانًا تكتب له ولا ترسل.

وأحيانًا تمسك الهاتف، تتردد، ثم تضعه جانبًا.

–"آدم... كيفك؟ هل أنت بخير؟"

صوتها يهمس في قلبها كل ليلة.

✦آدم في باريس – كلية الطب✦

آدم، في الجانب الآخر من العالم، يسير في شوارع باريس الباردة، معطفه الأسود، وسماعات في أذنيه.

يعيش في سكن جامعي مختلط، يتحدث الفرنسية والإنجليزية، لكن قلبه... لا يزال يتكلم بالعربية.

الدراسة صعبة، والجداول ممتلئة، لكنه دائمًا الأول في صفه، كما كان دومًا.

صديقه المقرب الآن شاب تونسي اسمه "وليد"، يدرسان معًا، يسهران في مكتبة الحرم الجامعي، وبين الأوراق والكتب، يضحكان، يتحدثان عن الوطن، عن الغربة، وعن الحب.

وليد سأله يومًا:

–"آدم، ما حبيتش من قبل؟"

آدم ابتسم وقال:

–"كانت بيني وبينها حرب... لكن قلبي اختارها."

ضحك وليد:

–"آه، من نوعية الحب اللي يبدأ بالخناق؟"

آدم ابتسم، نظر إلى صورة صغيرة على هاتفه وقال:

–"أجمل بداية... وأكثرها صدقًا."

**

ورغم المسافات، ورغم الانشغالات، كان كلاهما يحمل الآخر في ذاكرته.

لكن الحياة تمضي... والجامعة لا تنتظر أحدًا.

الفصل السابع والعشرون

"وعد اللقاء... الذي لم يأتِ"

مرّ عام كامل...

عامٌ من الغربة، من النجاح، من النمو، ومن الوحدة المخبّأة خلف الضحكات.

✦ماريا✦

كانت الرحلة من الرياض إلى الجزائر طويلة، لكنها لم تكن متعبة كما توقّعت.

ربما لأن قلبها كان يسبقها... يحلّق بين سماء الوطن، وبين أزقّة الذكريات.

وصلت ماريا إلى البيت، حيث كانت والدتها تنتظرها بالأحضان، بالعطر ذاته الذي كانت تضعه دائمًا، وبرائحة الكسكس الساخنة التي ملأت الدار.

الضحكات، الأحضان، وجلسات العائلة أعادت لها روحها، لكنها كانت تفتقد شيئًا... لا، *شخصًا*.

في اليوم الثالث من عودتها، ارتدت فستانًا بسيطًا، وخرجت وحدها تمشي بجانب الثانوية القديمة، تلمس جدرانها، وتبتسم كلما رأت مكانًا كانت تصرخ فيه هي وآدم ذات يوم.

وقفت في الساحة، حيث كانت المسرحية، حيث أعلن آدم ذات يوم أمام الجميع:

"ماريا... خطيبتي."

ضحكت قليلاً... ثم طأطأت رأسها.

"أين أنت الآن؟ هل تتذكرني؟ هل نسيت كل شيء؟"

همست في سرّها، وانتظرت... لكنها لم تراه.

سألت صديقتها رُلى، سألت زملاءها القدامى، حتى والدتها سألتها عرضًا عن عائلة كوثر، لكن لا أحد يعرف.

قالوا: "سافر إلى فرنسا، وانقطعت أخباره عن الجميع."

كانت تأمل أن يظهر... أن ترافق عيناها تلك العينين من بعيد، أن يلتقيا صدفة في زاوية طريق...

لكن الصدفة لم تأتِ.

وبعد أسبوعين فقط، عادت ماريا إلى المطار.

في طريقها إلى السعودية، جلست قرب النافذة، تنظر من بعيد إلى مدينتها، وتهمس:

"ربما في وقتٍ آخر... ربما في حياةٍ أخرى..."

**

بدأ فصلٌ جديد في حياتها، بنفس المدينة، بنفس الحلم، لكن بقلبٍ أثقل قليلاً.

الفصل الثامن والعشرون

"خيوط الحلم الأولى"

مرت أشهر قليلة منذ عودة ماريا إلى الرياض، وكانت عودتها هذه المرة مختلفة.

لم تعد تلك الفتاة المراهقة الحالمة، بل أصبحت الآن شابة تقف على أعتاب مستقبلها، بين خيوط القماش وألوان التصميم، تصنع عالمها كما كانت تحلم دائمًا.

✦داخل مرسمها✦

وقفت أمام لوحٍ خشبي معلّق عليه العشرات من المسودات، ألوان، قصاصات قماش، صور لعارضات، وملاحظات مكتوبة بخط يدها:

"لمسة شرقية... روح أوروبية... توقيع ماريا."

قالت لنفسها وهي تدوّن أفكارًا في دفترها:

"مشروعي النهائي لازم يكون مختلف... بصمتي لازم تبان من أول نظرة."

بدأت العمل على مجموعتها الخاصة لتخرجها من الجامعة:
خطّ أزياء نسائي مستوحى من التقاليد العربية، ممزوج بلمسة عصرية جريئة.
كانت تسهر لساعات، تنام أحيانًا وهي تمسك قلمًا أو إبرة.
ورغم ضغوط العمل، لم تكن تشتكي... كانت مشغولة بالحلم.
صديقاتها من الجامعة يساندنها، يعجبن بتصاميمها، ويشجعنها على التقديم في المعرض السنوي للمواهب الشابة.
لكن رغم كل النجاحات، كان هناك مكان صغير في قلبها لا يزال فارغًا... اسمه :آدم.

**

في إحدى الليالي، وبينما كانت تراجع تفاصيل عرضها، جلست ماريا أمام المرآة.
نظرت إلى انعكاسها، إلى الظلال تحت عينيها، إلى ملامحها التي كبرت رغم صغر سنها، وهمست:
"كأنني عشت عمرًا بأكمله... لكن لا بأس، سأنجح. لن أكون مجرد ذكرى في دفتر ثانوي."

ثم وقفت، وارتدت عباءتها، وتوجّهت لمحل الخياطة الذي تتعامل معه.

اليوم ستبدأ خياطة أول فستان من مجموعتها.

**

وبينما كانت تخيط، قالت لها الخياطة العجوز:

–"تصاميمك تحكي قصة... وحدة فيها دموع وأمل."

ابتسمت ماريا بحزن:

–"ربما لأني عشت القصة فعلًا."

الفصل التاسع والعشرون

"حين ارتدت الأحلام قماشًا"

كان المعرض السنوي في جامعة الرياض للفنون أكبر مما تخيلته ماريا.

قاعات مزينة، أضواء مسلطة، كاميرات تتنقل بين الحضور، ومصممون من مختلف أنحاء المملكة والبلدان المجاورة.

كل طالبة كانت تعرض مشروع تخرجها أمام لجنة من أكبر مصممي الأزياء المحليين والعالميين.

**

وقفت ماريا بثقة خلف منصتها.

ستة تصاميم... كل فستان يحكي قصة، منسوج من ذاكرة، من حلم دفين.

أحد الفساتين حمل لمسة تقليدية مستوحاة من القفطان الجزائري...

آخر استلهمته من نوافذ بيوت حيّهم العتيق في مغنية...

وثالث كان نسخة ناعمة من "أمل"، فستان صنعته لتكون فيه المرأة حرة، جريئة، ناعمة، قوية في آنٍ واحد.

**

بدأ العرض...

تقدمت العارضات واحدة تلو الأخرى، والموسيقى تسرد خلفهن حكايات ماريا التي صمتت طويلًا ذات يوم، لكنها الآن تصرخ عبر الألوان، عبر القماش.

تبادل الحضور النظرات، همسات، دهشة.

أحد الحكام، مصمم أزياء عالمي، قال بصوتٍ مسموع:

–"هذه التصاميم... فيها روح. إنها تروي شيئًا أكبر من الجمال، تروي مشاعر."

**

وبعد لحظات الترقب، وقفت المديرة على المنصة تعلن النتائج:

–"الفائزة بالمركز الأول لأفضل مجموعة تصميم أزياء هذا العام هي ...ماريا ياسين!"

ساد التصفيق، وامتلأت عينا ماريا بالدموع، لكنها حافظت على وقارها وابتسامتها.

صعدت المنصة، تسلّمت الجائزة، ووقفت أمام الميكروفون:

"هذه التصاميم ما هي إلا رسالة صغيرة من فتاة عادية، آمنت أن الحلم لا يُولد جاهزًا، بل يُخاط بخيوط التعب، والإصرار، والجرأة."

**

رجعت إلى سكنها تلك الليلة وهي تحتضن الجائزة.

في الظلام، همست لنفسها:

"فعلتُها... وأشعر أنك فخور بي، حتى و إن كنت بعيدًا يا آدم."

الفصل الثلاثون

"حين خاطت اسمها في خريطة العالم"

مرت أشهر على فوز ماريا بالجائزة الأولى في المعرض، وكانت الرسائل تنهال عليها:

دعوات، فرص، شركات تعرض التعاون، وأخرى تطلب انضمامها كمصممة رئيسية.

لكن ماريا كانت تفكر أبعد من ذلك...

كانت تريد بصمت أن تصنع شيئًا يحمل اسمها، لا أن تكون اسماً تحت راية أحدهم.

**

وفي أحد الليالي، جلست أمام والدتها وقالت بثقة:

–"أماه... سأذهب إلى إسبانيا. قررت أفتح شركتي الخاصة هناك."

نظرت إليها والدتها بعينين دامعتين:

–"أنتِ حلمي اللي كبر قدامي، ماريا. ربي يوفقك، وأنا دايمًا معاك."

**

سافرت ماريا إلى برشلونة، مدينة الفن، الألوان، والثقافة.
بدأت من مكتب صغير في حي هادئ، تصمم وترسم وتشتري الأقمشة بنفسها.
ثم أطلقت أول مجموعة أزياء رسمية تحت اسم شركتها:
"Mariya Design"
شعارها كان:
"لكل امرأة قصة... ونحن نمنحها شكلاً."

**

وفي ظرف سنتين فقط، أصبحت ماريا واحدة من أشهر مصممات الأزياء في أوروبا.
ظهرت تصاميمها في عروض باريس، ميلان، ودبي،
وكانت تتلقى دعوات لحضور المؤتمرات كملهمة شابة ناجحة.
لكن الشيء الأجمل في نجاحها...
هو أنها لم تنسَ من أين بدأت.

**

أطلقت مبادرة "خيط الحلم"، وهي مؤسسة صغيرة تدعم الشابات الموهوبات من الدول العربية، وتمنحهن تدريبات، تمويل، وحتى فرصًا للعمل في شركتها.

أصبحت ماريا ليست فقط مصممة أزياء، بل أيضًا مستثمرة مشهورة،

تُشجّع الأفكار الناشئة، وتُناصر الشابات المكافحات.

**

وفي إحدى اللقاءات التلفزيونية، عندما سُئلت عن سر نجاحها، أجابت بابتسامة:

"النجاح لا يعني أن تصل إلى القمة وحدك...

بل أن تمد يدك لغيرك حتى يصعدوا معك."

**

أصبحت المجلات تكتب عنها:

"ماريا... أيقونة الموضة وملكة الاستثمار الشاب."

"من فتاة في الثانوية إلى مؤسسة عالمية تخيط الأمل في قلوب النساء."

**

لكن، في قلبها...

كان سؤال لم يُخيط بعد، ولم يُحكَم خيطه...

أين أنت الآن، يا آدم؟

الفصل الحادي والثلاثون

"حين تعثرت الأقدام... وقف الحلم على رجلٍ واحدة"

كان الجو معتدلاً في برشلونة، والمدينة تضج بالحياة كما اعتادت.

أنهت ماريا عرض أزيائها في مدريد، وأبهر الحضور تصاميمها المستوحاة من الطابع الأندلسي،

ضحكت كثيرًا تلك الليلة، تناولت العشاء مع زملائها...

ثم استقلت الطائرة إلى برشلونة.

**

وصلت إلى شقتها الصغيرة المُطلة على البحر، أنهكها التعب لكنها صعدت الدرج بخفة كعادتها.

لكن القدر... قرر أن يختبرها.

سقطت فجأة، والتوت قدمها تحت جسدها، وسمعت طقطقة حادة أيقظت الرعب في قلبها.

صرخت بألم حاد، وصرخ صوتها في درج العمارة:

–"آآآاه!!"

هرع أحد الجيران، اتصل بالإسعاف، وفي دقائق قليلة كانت تُنقل إلى أفضل مستشفى في برشلونة.

**

تم إدخالها مباشرة إلى قاعة الاستعجالات، كانت ترتجف من الألم، وعندما دخل الطبيب المختص وأجرى الفحص، قال بجدية:

–"لدينا تمزق حاد في العصب الرئيسي للقدم اليمنى.

نحتاج إلى عملية جراحية عاجلة ...خلال الساعتين القادمتين، و إلا سيكون الضرر دائمًا."

**

في غرفة العمليات، غابت ماريا عن الوعي...

وكل تصاميمها، وكل نجاحها، وكل ذكرى طفولتها مرت كشريط سينمائي أمامها.

"هل سأعود لأمشي؟

هل سأرسم بقلمي وأنا واقفة؟

هل سأتألم كلما لبست كعبًا؟"

–تساؤلات كانت تغرقها.

**

لكن العملية... نجحت.

استيقظت بعد ساعات طويلة تحت تأثير المخدر،

وكان الطبيب يبتسم وهو يقول:

–"أنتِ محظوظة، آنسة ماريا... العصب استجاب، وستستعيدين كامل قدرتك على المشي بعد فترة من العلاج الفيزيائي."

**

ابتسمت رغم التعب:

–"كنت أخشى أن أفقد كل شيء بلحظة..."

رد الطبيب بلطف:

–"أنت لم تخسري شيئًا... بل ربحتِ حياةً أكثر وعيًا."

**

في تلك الليلة، جلست على سريرها في المشفى، تنظر من النافذة إلى ضوء القمر،

فكرت في حياتها، في إنجازاتها، في والدتها، وفي...

آدم.

همست:

"لو كنت هنا... كنت ستضحك عليّ وتقول:

'حتى الدرج غار من جمالك...'"

ثم أغمضت عينيها والدمعة تسبق الابتسامة.

الفصل الثاني والثلاثون

"حين دخل الطبيب... تجمد الزمن"

كانت ماريا مستلقية على السرير، تُحدّق في سقف الغرفة الأبيض، تضع يدها على جبينها، تفكر في كل ما مضى، وفي خطواتها القادمة...

عندما انفتح باب الغرفة فجأة بلطف، ودخل الطبيب المسؤول عن حالتها.

دخل بخطوات هادئة وهو يقلب في ملفها الطبي، مرتديًا معطفه الأبيض،

وكمامته تغطي نصف وجهه، لكن عينيه...

عينيه كانتا مألوفتين إلى حد جعل قلبها يتوقف لوهلة.

رفع نظره عن الملف، التقت عينيه بعينيها...

وصوتها خرج هامسًا، مصدومًا:

–"آدم؟!"

أزاح الكمامة ببطء، وكأن الزمن يسير ببطء متعمد ليزيد من توتر اللحظة،

وابتسم تلك الابتسامة التي لم تنسها يومًا وقال:

–"ماريا... يا للمفاجأة!"

كانت عيناها تتسعان، وكأنها ترى شبحًا من ماضيها،

شهقت بصوت منخفض:

–"أنت الطبيب؟ هنا؟ في برشلونة؟!"

–"نعم، أعمل هنا منذ أربعة أشهر... في قسم الجراحة العصبية."

ظلّ الصمت يلف المكان لثوانٍ بدت كأنها دهر.

–"ولمَ لم تتصل؟ لم تكتب؟ لم تخبرني؟!"

قالتها بنبرة تحمل عتابًا حلوًا وألمًا دفينًا.

تنهد وقال:

–"كنت مشغولًا بالدراسة والعمل... ثم قلت ربما نضجنا، ربما كلٌ منا يسير في طريقه... ولم أكن أتوقع أبدًا أن أجِدكِ هنا... مريضة."

خفضت نظرها للحظة، ثم قالت:

–"عجيب... حتى الألم يجيد جمعنا."

اقترب منها، جلس على الكرسي المجاور للسرير،

مد يده ليفحص رجلها، ثم قال بلطف:

–"العملية نجحت، لكنك بحاجة لشهرين من العلاج الطبيعي...

وأنا سأشرف شخصيًا على كل خطوة."

رفعت نظرها إليه ببطء، وابتسمت:

–"وهكذا... يعود آدم طبيبي، لا خصمي."

ضحك، وقال:

–"وسأظل أتابع حالتك... حتى تمشي بثقة كما كنت دائمًا."

كان اللقاء أشبه بعودة الروح...

صمتت الكلمات، وتحدثت العيون.

في غرفة بيضاء... كانت هناك بداية جديدة تُخيطها الأقدار بإبرة الصدفة.

الفصل الثالث والثلاثون

"غيرة... تسرق الكلام من القلب"

مرت يومان على إقامة ماريا في المستشفى.

آدم لم يغب عنها لحظة، يزورها يوميًا، يحضر القهوة المرة التي تفضلها،

يضحك معها، ويشجعها على التحسن، بل صار علاجها النفسي كما الجسدي.

في اليوم الثالث، كانت ماريا تضع لمسة نهائية على عرض تصميم جديد من سريرها،

عندما طرق الباب شاب طويل القامة، أنيق، يحمل بين يديه باقة ورد وحقيبة فيها جهاز حاسوب.

ابتسم وقال:

–"صباح الخير ماريا! جلبت التصميم النهائي كما طلبتِ."

–"رائد! فعلًا توقعت مجيئك، أدخل!"

دخل الشاب، جلس بجانبها على السرير بلطف،
فتحت الحاسوب، تقاربا ليشاهدان المشروع سويًا، واندمجا في نقاش عمل جاد.
دقائق وفتح الباب من جديد...
آدم.
كان يحمل بعض التحاليل الطبية وكوب عصير.
لكنه توقف في مكانه، عينيه وقعتا على المشهد أمامه:
ماريا تضحك بخفة، رأسها قريب جدًا من رائد،
وصوتها ناعم بطريقة لم يسمعها منذ زمن.
تجمد للحظة. نزلت ابتسامته.
تنحنح وقال ببرود:
–"أعتذر... يبدو أنكما مشغولان."
التفتت إليه ماريا بسرعة:
–"آدم! لا، تفضل... هذا رائد، صديقي وشريكي في أحد المشاريع."
رائد وقف وقال بأدب:

–"تشرفت، أنا رائد طاهر، مصمم داخلي، شريك ماريا في مشروع تصميم فندق صغير في ماربيا."

آدم هزّ رأسه بابتسامة مجاملة وقال ببرود:

–"آدم، الطبيب المشرف على حالتها."

سلم عليه بسرعة ووضع التحاليل على الطاولة ثم استدار:

–"سأترككما، لدي حالات طارئة."

غادر الغرفة... دون أن ينظر إليها مجددًا.

رفعت ماريا حاجبيها بدهشة:

–"ما به؟ لم يكن هكذا قبل قليل..."

رائد ابتسم وقال ممازحًا:

–"أنتِ متأكدة أنه طبيبك فقط؟"

ضحكت بخفة لكنها شعرت بشيء داخلي يُزعجها.

شيء غريب... لا تعرفه.

مساءً، لم يأتِ آدم كعادته.

ولا رسالة.

ولا اتصال.

أحست بشيء مكسور...
وكأن صمت آدم أقوى من أي كلمة قيلت.

الفصل الرابع والثلاثون

"حين يصمت الغيور... تتكلم العيون"

مرّ اليوم التالي ببطء شديد...

آدم لم يزر ماريا، ولم يتصل بها، ولم يُرسل أيّ رسالة.

حتى العامل الذي كان يبعث لها القهوة منه... لم يأتِ اليوم.

ماريا جلست في سريرها تحدق بالهاتف...

لكن لا إشعار، لا مكالمة... فقط صمت يضرب قلبها.

همست في نفسها:

–"لماذا؟ ما الذي تغير؟ هل هو... بسبب رائد؟"

قررت أن تنتظر حتى المساء... لكنها لم تصبر.

طلبت من إحدى الممرضات الاتصال به و إخباره أنها تريد الحديث معه.

بعد ساعة... دخل آدم غرفتها، يداه في جيبه، وملامحه باردة.

قالت ماريا بصوت خافت وهي تشير للكرسي قرب سريرها:

–"اجلس، أريد أن أتحدث معك."

جلس بصمت. لم يبتسم، ولم ينظر إليها.

–"آدم، منذ متى صرت تتجاهلني هكذا؟"

–"أنا لم أتجاهلك، لدي عملي."

رفعت حاجبها وقالت بحدّة:

–"آه، يعني في الأيام الماضية لم يكن عندك عمل؟"

لم يُجب.

–"آدم، هل أنت غاضب لأني استقبلت صديقي في غرفتي؟"

هنا تنفّس بعمق، وقال دون أن ينظر إليها:

–"ليس من شأني من تستقبلين."

سكتت لثوانٍ، ثم قالت بهدوء:

–"آدم، أنت صديقي... كنت تزورني كل يوم، تضحكني، تطمئن عليّ، صرت جزءًا من قوتي هنا...

ثم فجأة، بردت، واختفيت، وتركتني أضع ألف سيناريو."

رفع نظره إليها أخيرًا...

عيناه تحملان شيئًا أكبر من الحزن... شيء اسمه *غيرة مكبوتة*.

قال بصوت متماسك:

–"ماريا... لا أظنني كنت فقط صديق."

توسعت عيناها.

توقفت أنفاسها.

لم تعرف ما تقول.

ابتسم بسخرية وقال:

–"لما رأيتك معه... شعرت بشيء داخلي يحترق.

وأنا لا أملك الحق في الغيرة، لكنني شعرت بها، رغماً عني."

تنهدت ماريا وقالت بهدوء:

–"آدم... رائد صديق وشريك عمل، لا أكثر.

وأنت... شخص مختلف... أقرب، وأغلى، وأكثر من صديق."

نظر إليها بصمت.

ثم وقف وقال بلطف:

–"ماريا... لا تغيبي عني مرة أخرى، حتى لو كنتِ بعيدة آلاف الكيلومترات.

أنا لا أحتمل ذلك."

ابتسمت بخفة...

وقالت:

–"ولن أغيب... وعد."

في مطار مدريد الدولي – الساعة 10:45 صباحًا
كانت ماريا تقف بجانب آدم، قلبها ينبض بتسارع لا تدري أسبابه.
هل هو الحماس؟ أم التوتر؟ أم مجرد ارتباك عابر بسبب ذلك الصمت الغريب الذي جمعها بآدم منذ حادثة المستشفى؟
قالت وهي تتظاهر بالهدوء:
–"هل تأكدت من أنهم على نفس الرحلة؟"
أومأ آدم دون أن ينظر إليها:
–"نعم... نزلوا للتو."
ثوانٍ قليلة مرت كأنها دهر، قبل أن تظهر كوثر وأروى، ووراءهما والد آدم، رجل طويل القامة، مهيب النظرة، يجر حقيبة سفر صغيرة بابتسامة دافئة.
أروى فتحت ذراعيها فور رؤية ابنتها:
–"ماريا حبيبتي!"

ركضت ماريا إليها واحتضنتها بشوق، أما كوثر فقد اقتربت من آدم وطوقت عنقه بحنان أمٍ اشتاقت طويلًا:

–"وحشتني بزاف يا وليدي."

نظر والد آدم إلى ماريا وابتسم بأدب:

–"أخيرًا ألتقي بكِ يا ماريا، لقد حدثوني عنك كثيرًا."

أجابت ماريا بلطف وابتسامة مترددة:

–"الشرف لي، عمّي."

بعد العناق والتحيات، سألت كوثر:

–"و إياد؟ علاش ما جا معاكم؟"

نظرت أروى للحظة نحو الأرض، ثم قالت بسرعة:

–"ظروف... ما قدرش يجي."

تبادلت ماريا وآدم نظرات قصيرة، فيها شيء من التساؤل... والقلق.

لم يكن من عادة إياد أن يتخلف عن زيارات العائلة.

ركب الجميع السيارة، وبدأت رحلتهم نحو شقة ماريا حيث كانت تنتظرهم مائدة الغداء.

وخلال الطريق، كان آدم يراقب ماريا من طرف عينه، بينما كانت تنظر من النافذة بصمت.

لا أحد تحدث عن إياد مجددًا... لكن ظله كان يحوم حولهم، كأنه يحمل سرًا لم يُكشف بعد.

في شقة ماريا – ليلة هادئة بعد العشاء

جلس الجميع حول مائدة عشاء دافئة، والجوّ مشبع برائحة التوابل والحنين. الصحون المملوءة والمائدة المزينة تدلّ على حبّ أروى للضيافة، ولمسات كوثر الأنيقة. تبادلوا أطراف الحديث وسط ضحكات لا تنقطع:

قالت كوثر مبتسمة:

–"تتذكرين يا أروى لما كنتِ تقولين إن ماريا مستحيل تتعلم الطبخ؟"

ضحكت أروى وهي تنظر إلى ابنتها بفخر:

–"والله كنت فاقدة الأمل، لكن شوفي اليوم، طبخة الدجاج هذي تنافس طباخ المطاعم الفاخرة."

قال والد آدم مازحًا:

–"ويبدو أن آدم استفاد من العشاء أكثر من مراجعة المسرحيات!"

ارتبكت ماريا، بينما حاول آدم أن يخفي ابتسامته وقال ساخرًا:

–"بالعكس، الطعام فقط وسيلة لتحفيز الذاكرة."

ضحك الجميع، وفي تلك اللحظة شعروا أن شيئًا جميلاً يجمعهم رغم المسافات والسنين.

في صباح اليوم التالي – الساعة 9:00 صباحًا

كان البيت غارقًا في صمت هادئ، فقط أشعة الشمس تتسلل عبر النوافذ. ماريا وحدها كانت مستيقظة، تحتسي قهوتها بهدوء على شرفة الغرفة. فجأة...

طَرقات على الباب.

رفعت حاجبيها باستغراب، اقتربت ببطء وفتحت الباب...

إياد واقف هناك، يبتسم بنصف ابتسامة، إلى جانبه فتاة مألوفة الملامح ...رُلى!

صرخت ماريا:

–"إياد!! رُلى!! أنتما؟! كيف؟!"

قاطعها إياد بابتسامة:

–"مفاجأة صغيرة... توقعت أنكِ بحاجة لصديقك المفضل!"

رُلى فتحت ذراعيها بحماسة:

–"اشتقتلك بزاف يا بنت! ما نقدرش نخليك تمرّي بكل هادشي وحدك."

هرعت ماريا إليهما، احتضنتهما بقوة، عينان دامعتان وقلب مليء بالامتنان.

دخل الثلاثة إلى الشقة، بينما لا يزال الجميع نائمًا... لكن خلال لحظات، بدأت الحركة في المطبخ، وصوت خطوات تتجه نحو الباب.

خرج آدم أولًا، فوقف مصدومًا عندما رأى إياد... تبادلا نظرة قصيرة مشحونة، قبل أن يكسر إياد الصمت:

–"صباح الخير... دكتور آدم."

رد آدم بابتسامة مشدودة:

–"صباح النور... إياد."

أما أروى وكوثر، فما إن رأتا ابنها حتى ركضتا إليه واحتضنتاه بدموع وفرحة حقيقية.

الجوّ امتلأ بالمشاعر، بين الشوق، الذكريات، والعديد من الأسئلة التي لم تُطرح بعد...

في صباح ذلك اليوم – على طاولة الفطور

اجتمع الجميع حول المائدة، الضحكات تعلو من جديد، والوجوه مشرقة. ماريا توزع أكواب القهوة، بينما آدم يمرّر سلة الخبز. كانت الأجواء خفيفة، مليئة بالراحة والألفة.

فجأة، وضع إياد كوبه على الطاولة، نظر إليهم جميعًا وقال بجدية هادئة:

–"بما أني اجتمعت معكم أخيرًا بعد هذه السنوات... حبيت نشارككم قرار مهم."

نظر الجميع إليه باستغراب، بينما وضعت رُلى رأسها للأسفل بخجل.

تابع إياد بثقة وصوته دافئ:

–"رُلى... نعرفها من كنا صغار. كبرت معانا، وكانت دائمًا جزء من العائلة. ولأنها فقدت عائلتها في حادث مؤلم، صارت أقرب إنسانة لي، وصارت عائلتي."

توقف لحظة ثم ابتسم وأضاف:

–"قررت نطلب يدها للزواج، وهي وافقت."

الهدوء عمّ المكان لثوانٍ، ثم انفجر الجميع بالفرح.

صرخت أروى بفرحة:

–"مبروووك يا وليدي! هذا أحسن خبر سمعته اليوم!"

كوثر صفقت بحماس:

–"ما شاء الله عليكم! الله يتمم لكم بالخير."

أما ماريا، فقد نهضت من مكانها، واحتضنت رُلى بحرارة وهي تهمس:

–"أنا سعيدة من أجلك... تستاهلين كل خير."

ابتسم آدم ونظر إلى إياد قائلًا:

–"الظاهر إنك سبقتنا بخطوة، مبروك خويا."

ضحك إياد وردّ مازحًا:

–"وأنت شمر على ساعديك... دورك جاي."

وهكذا بدأت تجهيزات الزفاف.

ماريا أصبحت مشغولة بمساعدة رُلى في اختيار الفستان، تصميم الدعوات، واختيار الألوان.

أما إياد، فكان يركض بين صالة الأعراس والمأذون، وعينه دائمًا على راحة رُلى.

المشهد الأخير من هذا اليوم كان صورة جماعية... الجميع يضحك، فرحًا وسعادة تملأ المكان، ودمعة خفية في عين ماريا، لا تدري إن كانت فرحًا لأخيها... أم حنينًا لشخص تتمنى أن يأتي دوره يومًا ما.

داخل مشغل "ماريا كوتور" – في قلب إسبانيا

جلست ماريا على كرسيها الدوار، بين لفائف الأقمشة الحريرية والتطريزات اللامعة. كان الضوء الطبيعي يتسلل عبر النوافذ الواسعة، ينعكس على الطاولة الزجاجية حيث رُسمت تصاميم فساتين الزفاف وبدلات الرجال بعناية فائقة.

رفعت ماريا عينيها نحو رُلى التي كانت تقف وسط القاعة، ترتدي فستان زفافٍ أبيض ناعم، مزين بتطريزات يدوية رقيقة على شكل زهور لوزية.

قالت ماريا وعيناها تلمعان بالفخر:

–"هاذ الفستان ما صممتوش فقط لعروسة... صممتو لأختي، للي تستاهل تلبس الجمال نفسو."

دمعت عينا رُلى:

–"شكراً ماريا، ما كنتش نحلم بحاجة أجمل من هاذي."

في الزاوية الأخرى، كان آدم و إياد ووالدهما يقيسون البدلات السوداء الأنيقة. تصاميمها كانت أنيقة جدًا، كلاسيكية بتفاصيل عصرية. أما بدلة إياد، فقد كانت بلمسة فريدة تعبر عن مكانته كالعريس.

قال إياد وهو ينظر في المرآة:

–"ماريا، راكي فنانة حقيقية... ما توقعتش نلبس حاجة بهذا الذوق العالي."

ضحك الأب وهو يشد أكمامه:

–"وش نقول أنا؟ أول مرة نلبس حاجة مصممة خصيصًا ليا! حسّيت روحي في فيلم."

اقترب آدم من ماريا، وهمس وهو ينظر إلى بدلة إياد:

–"نقولك حاجة؟ صممتِ لقلوبنا قبل ما تصممي لينا."

نظرت إليه ماريا بابتسامة خجولة، ثم أشاحت بنظرها وهي تقول:

–"ما زال ما كملتش... حفلة العرس راح تكون فيها مفاجآت."

المشهد يختتم بصورة جماعية داخل مشغلها، الجميع يرتدي ما صممته ماريا، وكلهم يضحكون، فرحين بما صنعته أيادي الحب والإبداع.

المكان: قصر فخم على الطراز الأندلسي، تحيط به الأضواء والزهور البيضاء، الموسيقى الكلاسيكية تعزف في الخلفية.

المشهد يُفتتح من الخارج...

الكاميرا تمرّ على الضيوف وهم يدخلون القصر، يرتدون أبهى حللهم. أطفال يركضون بين الممرات، الكبار يتبادلون التحايا، والكاميرات توثق كل لحظة.

في غرفة العروس...

كانت رُلى تقف أمام المرآة، ترتجف قليلاً من التوتر. ماريا تُثبت طرحتها بخفة.

ماريا (بابتسامة هادئة:(

–"ما تخافيش... اليوم هذا مشي مجرد عرس، هذا نهاية بداية وحلم كبرنا عليه سوا."

رُلى (بصوت متأثر:(

–"و إنتي كنتي دايمًا الحلم لي يوقف معايا..."

في غرفة العريس...

إياد يُعدّل ربطة عنقه، ويأخذ نفساً عميقاً.

آدم يربّت على كتفه:

–"خويا، اليوم راك تدير خطوة كبيرة... لكن راك قدها."

إياد يبتسم وهو ينظر إلى ساعته:

–"جاهز... أكثر من أي وقت."

المكان يتحوّل إلى القاعة الكبرى...

ماريا تدخل أولاً، مرتدية فستانًا أنيقًا من تصميمها الخاص، الكل يصفق لجمالها وتألقها، وكأنها لوحة فنية تمشي بثقة.

خلفها مباشرة، تدخل رُلى... الجميع يقف من أماكنهم.

إياد يقف مبهورًا، ينسى العالم من حوله للحظة وهو يراها.

الإمام يقرأ بعض الكلمات، ثم يبتسم ويقول:

–"على بركة الله... قد تمّ العقد."

الزغاريد تملأ القاعة، تصفيقٌ، ضحكٌ، ودموع فرح.

خلال العشاء...

الجميع على الطاولات، ماريا تجلس بجانب آدم، يتهامسون ويضحكون بخفة.

آدم يهمس لها:

–"المرة الجاية... راح نكونو حنا على الكوشة، واش رأيك؟"

تنظر له ماريا، تضحك بخجل:

–"خليني نتهنّى اليوم، وبعدين نشوف."

في وسط القاعة، تُطفأ الأضواء، يُعرض فيديو قصير فيه صور الطفولة لماريا، إياد، رُلى، وآدم...

صوت ماريا في الخلفية:

–"الحلم ما يجيش وحدو... الحلم محتاج قلوب تحبك، وناس تشوفك كبير حتى وانت صغير."

يُختتم المشهد برقصة أولى بين إياد ورُلى، ثم تنضم إليهم العائلة، والموسيقى تعزف ألحان حب وسعادة.

المكان: الشاطئ ليلاً، بعد انتهاء عرس إياد ورُلى، المدعوين غادروا، والنجوم تملأ السماء.

كانت ماريا تقف حافية على الرمل، فستانها الطويل يتطاير بخفة، تحمل حذاءها بيدها وتحدق في البحر. يقترب آدم بهدوء، يمشي بجانبها دون أن ينطق.

ماريا تبتسم دون أن تنظر إليه:

–"أول مرة نحس بالهدوء من شهور..."

آدم:

–"وأنا أول مرة نقرر نقول كلشي بلا خوف."

تنظر إليه باستغراب:

–"وشنو حاب تقول؟"

يتوقف آدم، يواجهها، عيونه تلمع تحت ضوء القمر:

–"ماريا... كبرت معاك، عرفت روحي معاك، ضحكت، بكيت، تحاربت معاك، وفي وسط كل هاد الشي... كنت نحبك."

ماريا تتجمد، نظرتها لا تفارقه.

–"كل يوم نزيد نحبك أكثر، حتى وكنتِ بعيدة، كنتِ معايا... أنا حاب نكمل حياتي معاك، مش شراكة ولا صداقات ولا مسرحيات... حابك تكوني زوجتي."

ينحني، يخرج خاتمًا صغيرًا من جيبه.

–"ماريا... تقبلي تكوني خطيبتي؟"

ماريا تضحك بخجل، تمسك دموعها:

–"تأخرت بزاف، كنت نستناك تقولها من زمان..."

تمد يدها، يضع الخاتم، ويحضنها برقة وسط نسيم البحر وصوت الأمواج.

المشهد التالي:

عرس ماريا وآدم، فخم وأنيق، تصاميمها تملأ المكان، الكل يبكي من الفرحة.

ماريا ترتدي فستانًا أبيضًا من تصميمها الخاص، أنيق ومميز، وآدم ببدلة فاخرة صممتها له بنفسها.

آخر لقطة:

ماريا وآدم يقفان في شرفتهما، يحدقان في المدينة، تقول ماريا:

–"بدأت أحلامي بورقة رسم... واليوم نرسم حياة كاملة معاك."

آدم يضحك:

–"والرسم هذا، ما راح يمحيه الزمن."

تنتهي الرواية بهذه الجملة المكتوبة على الشاشة:

"حين يلتقي الحلم بالإصرار... والحب بالقدر، تُولد قصص لا تُنسى."

"لم أكن أعلم أن الشجار قد يقود إلى الصداقة، وأن الغربة قد تكشف القلوب، وأن النجاح لا يكتمل إلا بمشاركة من نحب... كانت رحلتي طويلة، مليئة بالألم، الطموح، والسقوط، لكن كل مرة

كنت أنهض من جديد.

علّمتني الحياة أن القدر لا يتأخر، بل يأتي في موعده تمامًا، وأن الحب الحقيقي لا يعرف حدود البلاد، ولا تفرّقه المسافات.

إلى كل فتاة تحلم وتخاف، تثور وتضعف، تذكري أنك قادرة على تحقيق المعجزات... تمامًا كما فعلتُ أنا."